

المحاضرة الأولى: الأدب المقارن مفهومه، شروطه وميدانه

تمهيد: شهد القرن التاسع عشر ظهور نظريات ومناهج جديدة تحاول قراءة الأدب من منظورات متعددة، وكان من جملتها "الأدب المقارن" كمنهج يسعى إلى قراءة الأدب في علاقاته الخارجية. وخلال هذا القرن أيضا عمّ أسلوب المقارنة وانتشر إلى أن غزا شتى الحقول المعرفية، فكان لزاما على دارسي الأدب اعتماد هذا الأسلوب (أسلوب المقارنة)، ناهيك عن تلك الآراء والمواقف التي بدأت تظهر هنا وهناك لتطالب بضرورة ترك العزلة والانفتاح على الغير قصد الاطلاع على ما أنتجته الأمم في مجال الإبداع الأدبي، وهذه الفكرة تمثل حقيقة الأدب المقارن بل إنها واحدة من الغايات التي يسعى إلى تكريسها.

وإذا جئنا إلى عبارة الأدب المقارن وجدناها تتألف من كلمتين اثنتين هما: الأدب والمقارن علما أن الدارسين يتفقون بشأن عناصر الأدب وإن اختلفوا فيما بينهم، لكن الاختلاف الأكبر يشوب لفظة المقارنة، إذ المقصود بها المعنى التاريخي وليس المعنى اللغوي، ذلك أن الأدب المقارن هو "دراسة مواطن التلاقي بين الآداب الإنسانية في لغاتها المختلفة وصلاتها الكثيرة المعقدة في حاضرها وماضيها". لكن يجدر الإشارة إلى أن مصطلح الأدب المقارن اعتبره الدارسون قاصرا عن التعبير عن مداوات الدراسات المقارنة، فراحوا يقترحون مصطلحات جديدة مثل: الأدب المقارن، تاريخ الأدب المقارن، النقد الأدبي المقارن، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن الأدب المقارن يعني الدراسات التي تقوم بين أدبين أو أديبين ينتميان إلى قومين مختلفين، وإذا كان لا بد من بعض المفاهيم الدقيقة لهذا التخصص فإن المراد منه أيضا: «ذلك الأدب الإنساني العالمي الدولي الذي يوثق الصلات ويقوي العلاقات بين الآداب القومية المختلفة في اللغة لغرض التأثير والتأثر»، ومما قيل عنه أيضا: «إنه العلم الذي يدرس على نحو خاص آثار الآداب المختلفة في علاقاتها المتبادلة».

وهكذا يتأكد لدينا أن الأدب المقارن من العلوم الحديثة التي شهدتها الدراسات الأدبية رغم وجود بعض المقارنات قديما بين الأدباء، غير أن هذه المقارنات تفتقر إلى المنهج والقواعد والأصول التي عرفتھا الدراسات المقارنة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الدارسين يفهمون الأدب المقارن على أنه «العلم الذي يتناول الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب الخارجة عن نطاق اللغة القومية التي كتب بها».

-شروطه:

يعتمد الأدب المقارن على شرطين أساسيين هما:

أ. **الصلات التاريخية:** إن المقارنة بين الأدباء أو الأعمال الأدبية تتطلب وجود صلة تاريخية بينهما لتوضح علاقة التأثير والتأثر، ذلك لأن الأدب المقارن يسعى إلى الوصول إلى الحقائق وشرحها عن طريق تاريخي، كما يبين كيفية انتقالها من لغة إلى أخرى.

ب. **اختلاف اللغة:** يجب أن تكون الآداب التي تحاكي أو تقارن مكتوبة بلغات مختلفة وليست نماذج أدبية مكتوبة بلغة أدبية واحدة، وعلى هذا الأساس فإن المقارنات بين أدباء اللغة الواحدة مهما كانت مفيدة ومهمة لا تعد من الأدب المقارن في شيء حتى وإن توفرت الصلات التاريخية بين الأعمال الأدبية.

–ميدان الادب المقارن:

من خلال ما تقدم يتح لنا جليا أن الأدب المقارن يتوجه للبحث في الصلات بين الآداب الإنسانية بغية اكتشاف الاشعارات الصريحة التي تبين مختلف الآداب القومية، كما يعنى بالأفكار والموضوعات والنماذج الأدبية المنتقلة من أدب إلى آخر.

مباحث الأدب المقارن:

أ. **الأجناس الأدبية:** وهي تلك القوالب الفنية التي تُصَبُّ فيها المادة الأدبية، وعلى إثرها يتم تقسيم الإنتاج الأدبي إلى ملاحم، ومسرحيات، وقصص، ومقامات، ومقالات، وروايات...، والباحث المقارن يتتبع نشأة الجنس الأدبي وحركته وتغيراته، وأسباب ذلك، ونتائج ذلك من بيئة إلى بيئة، ومن عصر إلى عصر، ووجب عليه توخي الدقة وإقامة الحجة، وتمحيص المادة التاريخية التي يلجأ إليها أثناء الدراسة.

ب. **الموضوعات الأدبية:** وهي من المحاور الأساسية التي عني بها الأدب المقارن في مقدمتها ألمانيا وفرنسا، وتتجلى معالم التأثير والتأثر من خلالها، وتتمثل في تلك النماذج البشرية الحقيقية (كليوباترا)، والنماذج البشرية الأسطورية (جحا)، والباحث المقارن مطالب بتحديد مدى أصالة هذه النماذج وهي تنتقل من بيئة أدبية إلى أخرى¹.

ج. **تأثير الكتاب ببعض البعض:** وهو من المباحث الأكثر انتشارا في الدراسة المقارنة، ويقوم على فكرتين:

– تحديد المؤثر: ويتم فيه توضيح مقدار التأثير إما جزئي وإما شامل، نحو تأثير شكسبير بأعماله في غيره.

– تحديد المتأثر: وقد يكون فردا أو مجموعة من الأدباء، نحو تأثر أدباء مصر بالكاتب الفرنسي "دي موباسان"، وفي هذا الموضوع يستوجب على الباحث المقارن الاضطلاع الواسع والفهم السليم والتحري الدقيق قبل الاستنتاج.

¹ :الأدب المقارن أصوله وتطوره، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط1، 1987، ص 360-361.

د.دراسة مصادر الكاتب: هي عملية جرد أو إحصاء لاضطلاعات الأديب، ومعرفة الموارد التي نهل منها وتأثر بها على تنوعها(كتبا-مراسلات-مقالات...)، وهذه الدراسة تكشف جوانب أصالة الأديب المتأثر، وحجم إبداعاته، رغم معارضة بعض الدارسين لهذا الأمر بداية².

هـ.التيارات الفكرية والأدبية: تتبادل الأمم فيما بينها الأفكار الدينية والفلسفية فضلا عن التيارات الأدبية، والتي لا تظل حبيسة أمة واحدة نحو المذاهب الأدبية، إذ يقف الباحث المقارن عند هذه الأفكار ويوضح ملامح هذه التيارات مع التصريح بمصدرها الأصلي، نحو ما قام به "بول فان تيغم" في (المذهب الرومانسي في الأدب الأوروبي)³.

و.صورة الأجنبي في أدب ما: قد تكون جزئية كصورة اسبانيا في شعر شوقي، والباحث المقارن يتوجب عليه دراسة حياة المؤلف ليقف على صلته بالبلد، ثم يحدد مصدر المعلومات التي قدمها، وبعدها يبين مستوى الصورة من حيث الصدق والشمولية، وقد تعالج صورة أمة من قبل مجموعة من الأدباء، وهذا النوع من الدراسات يمكّن الأمة من معرفة نفسها في نظر غيرها، وتعمل على السعي للارتقاء والتصحيح⁴.

المحاضرة الثانية: منهج الفرنسيين في الأدب المقارن+ أنموذج تطبيقي

تعد المدرسة الفرنسية أول مدرسة منهجية عرفها الأدب المقارن وأقدمها، انطلقت جهودها بفضل الجهود الجادة لروادها الأوائل الذين حرصوا على تطوير علم الأدب المقارن، أمثال: "فرديناند برونثير"، الذي نادى بضرورة توسيع ظواهر الأدب الغربي سواء من خلال محاضراته الملقاة من منبر المدرسة العليا للأساتذة، أو من مقالاته المنشورة في مجلة (Revue des deux mondes)، وحذا "جوزيف تكست" حذوه في مناقشة أطروحته عن روسو وأصول علمية الأدب(جان جاك روسو ومنابع الكسموبولتيه) سنة 1895، وخلف من بعده بالدن سبرجر بمؤلفه (غوته في ألمانيا)، والذي تولى منصب أستاذ الأدب المقارن في جامعة السربون، ومن إسهاماته أن حدد مفهوما للأدب المقارن الفرنسي، كما "قدم العدد الأول من مجلة الأدب المقارن سنة 1921 يبحث عنوانه "علم الأدب المقارن: تسمية ومادة"، فكان دور هذا البحث في بلورة ما يسمى بالاتجاه الفرنسي للأدب المقارن شبيها بدور البحث الذي ألقاه "رينيه ويلك بعنوان" أزمة الأدب المقارن سنة 1958 في مؤتمر تشابل هيل في بلورة ما يعرف بالاتجاه الأمريكي⁵.

وإلى جانب من سبق ذكرهم نجد "بول هازار" (أستاذ بجامعة السربون) وكوليج دي فرانس صاحب كتاب (الثورة الفرنسية والأدب الإيطالي) سنة 1910، وأطروحته (التأثير الفرنسي على إيطاليا في

2 : الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، ص 342-343.

3 : التيارات والتأثيرات الأدبية، سعيد علوش، ص 81.

4 : الأدب المقارن، غنيمي هلال، 419-420(بتصرف).

5 :حدود الأدب المقارن، فيرنر وفريديريك وهنري، تر: عبد الحكيم حسان، مركز الحضارة العربية ، القاهرة، ط1، 2003، ص 60.

القرن 18)، واتجهت دراسة هؤلاء نحو علاقات التأثير والتأثر بين الأدب الفرنسي والآداب الأوروبية الأخرى، وعملت على صياغة مفهوم خاص للأدب المقارن، الذي يتحدد بكونه: العلم الذي يدرس علاقات التأثير والتأثر الحاصلة بين الآداب القومية بمنهج تاريخي قائم على الوثائق والمصادر.

أما "بول فان تيغم" فهو من أبرز أساتذة الأدب المقارن بجامعة السربون، وصاحب كتاب (الأدب المقارن La Littérature Comparée) سنة 1931، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات لأهميته، جاء في قول الدكتور سعيد علوش عنه: "بالدينسبرجر هو رائد أول بيلوغرافيا للأدب المقارن، كما يكون فان تيغم هو رائد أو كتاب تعليمي حول الأدب المقارن، وهكذا تنتهي الطريقة الأولى بصاحبها إلى العمل الموسوعي، بينما تنتهي الطريقة الثانية بصاحبها إلى العمل المنهجي.."⁶.

ويعرف بول فان تيغم الأدب المقارن قائلا: "الأدب المقارن بالمعنى الأصلي للكلمة يدرس في الغالب علاقة ثنائية، أي علاقات بين عنصرين فحسب، سواء أكان هذان العنصران كتابين أم كاتبين أم طائفتين من الكتب أو الكتاب، أم أدبين كاملين، وسواء أكانت هذه العلاقات تتصل بمادة الأثر الفني أم بصورته"⁷.

ويتحدد مفهوم المردسة الفرنسية التقليدية للأدب المقارن في النقاط الآتية:

1. التركيز على منهج الدراسة في التاريخ الأدبي بدلا من النقد الأدبي، فالأدب المقارن لديهم يدرس العلاقات التاريخية بين الآداب القومية المختلفة.

2. التركيز على توفر شرط التأثير والتأثر، بمعنى وجود علاقة تاريخية فعلية بين الآداب، ولا تقوم الدراسة إلا على هذا الشرط.

3. الحد اللغوي، ومعناه شرط اختلاف اللغة بين الظاهرتين المدروستين.

4. المركزية الأوروبية بدلا من العالمية.

ويمكن إحصاء عاملين جوهريين كان لهما كبير الأثر في تحديد مفهوم الأدب المقارن في هذا الاتجاه، وهما:

1. الفلسفة الوضعية: والتي من نتائجها تحول المذهب الواقعي إلى الطبيعة، وتطبيق مناهج البحث في العلوم الطبيعية في دراسة الأدب وتفسيره.

2. الفلسفة التاريخية، والتي من نتائجها: الاسراف في استخدام منهج البحث في التاريخ، وكذا تعميق الحقائق غير المترابطة مع حشد من الوقائع المنعزلة، إضافة إلى العناية بالتفاصيل الخارجية وإفال النقد الداخلي.

6 : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، سعيد علوش، الدار البيضاء، الشركة العالمية للكتاب، 1987، ص 46.

7 : الأدب المقارن، بول فان تيغم، تر: سامي الدروبي، درا الفكر العربي، ص 148.

اجتمع هذان العاملان " ليجعلا من الدراسات الأدبية بعامة دراسات علمية تنظر إلى ظواهر الأدب نظرتها إلى وقائع العلوم وتدرسها على أساس منهج البحث في العلوم"⁸. لذلك كثيرا ما رددت مقولة الأدب المقارن هو وليد الفلسفة الوضعية، وبعدها ظهرت المدرسة الفرنسية الجديدة المنشقة عن المدرسة الفرنسية التقليدية، والتي من أهم روادها" رينيه إيتيانمبل" الملقب بالابن المشاكس للأدب المقارن.

المحاضرة الثالثة: منهج الأمريكيين في الأدب المقارن+أمودج

يبدأ تاريخ الأدب المقارن في الو.م.أ في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك منذ أن استطاع هذا العلم أن يوجد مكانة خاصة في منابر الجامعات الأمريكية المختلفة على يد فريق من العلماء لهم شأنهم، نحو: القس" شارل شانسي شاكفورد، والأستاذ "أرتورو ريشماند، والأستاذ هاري ليفين" وغيرهم كثير من الذين أصدروا عددا لا بأس به من المجلات المتخصصة في الأدب المقارن. إن بروز هذا الاتجاه الأمريكي الجديد للأدب المقارن جاء استجابة للمتغيرات الفكرية والمنهجية التي تطورت خلال النصف الأول من القرن العشرين، والتي وجهت سهام النقد ضد المنهج السائد في القرن التاسع عشر، المتمثل في سيطرة المنهج التاريخي وفلسفته الوضعية. ونفصد بالمتغيرات الفكرية والمنهجية المذهب الشكلي الروسي وما آل إليه من فكر بنيوي، نحو حلقة موسكو اللسانية" سنة 1914 التي اهتمت بالدراسات اللغوية، ثم تشكلت إثرها مدرسة الشكلايين الروس، والتي كان في أساسها معارضة للنزعة التعليمية في النقد الأدبي والمناهج التاريخية والنفسية السائدة آنذاك، مركزة على بنية العمل الأدبي داخليا مقاطعة دراسته خارجيا(قطيعة مع المناهج السياقية)، وجاءت بعدها "حلقة براغ اللغوية". ومن ناحية أخرى جاء المفهوم الأمريكي سعيا إلى أحداث مفهوم جديد ومتطور للأدب المقارن، من شأنه أن يتلافى أوجه القصور في المدرسة الفرنسية التقليدية، وإدانتها سببا في ظهور ما أطلق عليه تسمية" أزمة الأدب المقارن(La crise de la littérature comparée)، وذلك مع أعمال" رينيه ويلك منذ سنة 1946، إذ دعا إلى إستقلالية المفاهيم، ولم يتحقق له ذلك إلا سنة 1958 عندما انعقد "المؤتمر الثاني للجمعية العالمية للأدب المقارن في تشابل هيل في الو.م.أ ببحث عنوانه " أزمة الأدب المقارن"، مبيتا فيه أوجه القصور في المدرسة الفرنسية، محمدا إياها بما يلي⁹:

- عدم التحديد في مصطلح الأدب المقارن ومناهجه.
- الاندفاع بعوامل قومية وهي خدمة الأدب الفرنسي.
- عدم التركيز على العمل الأدبي في الدراسة.

⁸ : حدود الأدب المقارن، فيرنر وفريديريك وهنري، ص 12.

⁹ : مفاهيم نقدية، رينيه ويلك، تر: محمد عصفور، الكويت، 1987، ص 360.

-محاولة التفرقة بي الأدب العام والأدب المقارن، الأمر الذي أدى إلى التضييق في مجال الأدب المقارن.

يرى " ويلك " أن البرامج التي وضعها رواد المدرسة الفرنسية أمثال جان ماري كاري " وبول فان تيغم أنها تستطيع أن تقدم موضوعا واحدا ولا منهجا واضحا للدروس المقارن، فيورد ذلك في مقالته الشهيرة قائلا: " إن أخطر دلالة على الوضع المهتز الذي تمر به دراساتنا هي أنها لم تتمكن لحد الآن من تحديد دائرة عملها ومنهجيتها، وأنا أعتقد أن برامج العمل التي نشرها بالدنسبرجر وفان تيغم وكاريه وغيرها قد فشلت في هذه المهمة الأساسية، فقد أثقلوا الأدب المقارن بمنهجية عفا عليها الزمن، ووضعوا عليه أحمال القرن التاسع عشر الميتة من ولع بالحقائق والعلوم والنسبية التاريخية"¹⁰.

من الواضح إذن أن النزعة القومية السائدة في جميع أبحاث المدرسة الفرنسية، وأن الهدف من هذه البحوث هو " إقامة أهرام من الفضل لأمة عن طريق إثبات أكبر عدد من مظاهر التأثير من جانبها في أمة أو أمم أخرى، أو بإثبات أن الأمة التي ينتمي إليها المؤلف قد تمثلت كاتباً أجنبياً عظيماً أحسن مما فعلت أية أمة أخرى".¹¹

واستخدام المنهج التاريخي في المدرسة الفرنسية أدى إلى نتيجتين كلتاهما تعود بالضرر على الدراسة الأدبية، نحو:

أ.إحلال العمل الأدبي في المرتبة الثانية، بينما تعود المرتبة الأولى للعوامل والظروف المحيطة به.
ب.تجزئة العمل الأدبي "

ووردت آراء تدعو إلى التوفيق بين الاتجاه الفرنسي والاتجاه الأمريكي على رأسها " هنري رماك " و " أون أولدرج، والتي يمكن حصرها فيما يلي¹²:

-عدم التركيز على الجانب النظري أكثر والخوض فيما هو تطبيقي.

-توضيح العلاقة بين عدة آداب مختلفة وكذا العلاقة بين الأدب وميادين المعرفة والابداع الإنساني الأخرى خصوصا الميدان الفني والايديولوجي.
وتتلخص آراء المدرسة الأمريكية فيما يلي:

1.تعتمد المدرسة الأمريكية على مكونين أساسيين هما المبدأ الأخلاقي، الذي يعكس موقف الحضارة الأمريكية محاولة الانفتاح على العالم والثقافات الأجنبية، مع المحافظة على الأصالة، والمبدأ الثقافي الذي يسمح لها بأخذ البانوراما العالمية، والبحث عن هوية ثقافية تمكنها من الاحتفاظ بالقيم الجمالية والإنسانية للأدب.

¹⁰ : المرجع السابق، ص 362.

¹¹:المرجع نفسه والصفحة نفسها.

¹² : حدود الأدب المقارن، فيرنر وفريدريك وهنري، نقلا عن واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، أحلام صغور، ص 36.

2. الاكتفاء بمجرد وجود التشابه بين الظاهرتين لعقد الدراسة المقارنة عكس إلحاح المدرسة الفرنسية على مبدأ التأثير والتأثر، لأن هدفها بلوغ القيم الجمالية والتشكيلية للنص المقارن.
3. توسيع نطاق المقارنة من حدود الأدب ليشمل مجالات التعبير الإنساني الأخرى كالرسم والنحت، والموسيقى، والفلسفة، والعلوم الاجتماعية، والأديان... وهي مزوجة تفرض التداخل بين الاختصاصات والثقافات، والفنون والعلوم.
4. لا تفرقة بين الأدب المقارن والأدب العام، بل ترفض حصر دراسة الأدب المقارن في نطاق أدبين لا غير.
5. الاستفادة من المناهج على اختلافها في دراسة النصوص الأدبية أثناء المقارنة نحو، المنهج الماركسي، والنفسي وكذا الاجتماعي وغيرها.
6. الاهتمام بالعنصر النقدي الجمالي في النص مع الالتفات إلى العناصر الأخرى.
7. تبني المقارنة على أساس الاهتمام بدراسة الأدب في صلاته التي تتعدى حدود القومية.
8. منهجها أقرب للنقد كونها تعتمد على البنيوية.

المحاضرة الرابعة: الجهود العربية المثمرة في الدرس المقارن (مشرقاً ومغرباً)

1. **الإرهاصات والتأسيس:** ما من شك أن الاتصال القافي بين الأدبين العربي والغربي حديثاً سمح بالانفتاح على الآخر والاطلاع على نمط جديد من الحياة الثقافية، والي أخذ أشكالا متباينة بهذا العصر من قبيل الحروب الصليبية، وحملة نابليون 1798، والبعثات العلمية، والرسالات التبشيرية، والاستشراق، الأمر الذي كون رؤية تزعمها كل من رفاة الطهطاوي والحمصي وأحمد فارس الشدياق، وسليمان البستاني وجوجي زيدان وروحي الخالدي، إذ أصبحت كتابات هؤلاء تشكل لبنة أساسية للدرس المقارن، وسنكتفي بالإشارة إلى نموذجين هما رافع رفاة الطهطاوي وروحي الخالدي:
- رافع رفاة الطهطاوي: صاحب كتاب تخلص الابريز في تلخيص باريز"، الذي عالج فيه بعض الأنواع الأدبية كالشعر بين اللغتين العربية والفرنسية إلى جانب تصحيح العلاقات الحضارية العربية الأوروبية، إذ يقول: و لم يكن من الغريب أن يسلك زعماء هذه المرحلة ذلك المسلك وذلك لأنهم كانوا زعماء إصلاح قبل أن يكونوا دارسي أدب، ولهذا صارت دراسة الظواهر الأدبية واللغوية، والكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف بين أدبين أو لغتين أو إبراز السمات المشتركة للأدب

وللغة بصفة عامة، صار كل هذا وسيلة لتجسيم مظاهر القوة والضعف في المجتمع الذي يتحدث عنه المصلح ويسعى لإصلاحه وتطويره»¹³.

-روحي الخالدي: عُدد من أبرز رواد البحث المقارن في الأدب العربي خاصة الجانب التطبيقي منه، ويتجلى ذلك في مصنفه (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب 1904)، حيث تميزت دراساته بالنضج والمنهجية أكثر من سابقه في تتويج البيان الختامي للملتقى التمهيدي للرابطة العربية للأدب المقارن لأعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب في عنابة، حيث جاء بالبيان: «وقرر المشاركون في الملتقى توجيه تحية تقدير إلى الرواد الأوائل للدراسات المقارنة في الأدب العربي الحديث وفي مقدمتهم روعي الخالدي رائد الأدب العربي المقارن والدكتور محمد غنيمي هلال مؤسس الأدب العربي المقارن وحجته..»¹⁴.

ومما يؤكد الدقة المنهجية في مؤلفه دراسته المقارنة المبنية على التأثير والتأثير بتصدير الغلاف، «وهو يشمل على مقدمات تاريخية واجتماعية في علم الأدب عند الإفرنج وما يقابله من ذلك عند العرب إبان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى وما اقتبس منه الإفرنج من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة وخصوصا على يد فكتور هوكو، ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف وصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك..»¹⁵.

2. التأسيس:

انحصرت هذه المرحلة في مؤلفات ستة سعى فيها أصحابها «إلى تقريب الأدب المقارن من الطلبة، وتعويدهم على مناهج المقاربات الأدبية الجديدة، وآليات المقارنة الجديدة، وكان ذلك ما بين 1948 إلى 1960 حين صدر أول هذه المؤلفات كتابان سنة 1948، وواحد سنة 1951، واثنان سنة 1953، وسادهم سنة 1957»¹⁶.

ومما لاشك فيه أن مضامين هذه المؤلفات جاءت توضيحية لماهية الدرس المقارن وأسسها التي أنبنى عليها في بيئته، سعى أصحابها فيها إلى تقريب الطلبة وتمكينهم منه ومن آلياته.

- نجيب العقيقي وعبد الرزاق حميدة:

¹³ : دراسات في الأدب المقارن، عطية عامر رفاعة، مكتبة الانجلو المصرية، ط1، 1989، ص 19.

¹⁴ : أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب (14-19 ماي 1983 بعنابة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر، ص 372.

¹⁵ : مقدمة في نظرية المقارنة، عز الدين المناصرة للنشر، دار الكرملة عمان، دط، 1987، ص126.

¹⁶ : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، سعيد علوش، دار الكتاب، لبنان، ط1، 1987، ص566.

نشر الكاتبان مؤلفيهما سنة 1948 دون إشارة أحدهما إلى الآخر، وقد أرجع ذلك " سعيد علوش" إلى ترجمة التفرد بالريادة¹⁷، ونال عمل العقريقي كثيرا من التنويه لما قدمه عن العالم العربي نحو ما أشار إليه شوقي ضيف قائلا: «بحث طريف، كتبه صاحبه بعد درس طويل في الأدب العربي، ونحن نعرف أن الإمام بأدب أمة بحث شاق، فما بالك بآداب مختلفة لأمم مختلفة، ثم ذهب يقارن ويعلل ويسبب، ليرد خصائص الأديين العربي والغربي إلى دوافعها وبواعثها، ويفيض في بيان ذلك إفاضة لا تقوم على الفهم الدقيق فحسب بل تقوم قبل كل شيء على الدراسة المتأنية المستنيرة لخير ما كتبه الغربيون...»¹⁸.

ولعل قوله هذا يكشف لنا عن التأسيس الفعلي، والإسهام الحقيقي في الدرس المقارن قائلا: «الكاتب يستلهم الدراسات الأكثر حداثة والتي ظهرت في فرنسا حول هذه المشاكل الحادة.. إن تاريخنا الأدبي لفي حاجة ماسة إلى نقاد يمتلكون معارف عميقة في الأدب المقارن، وهذا يسمح لهم بإصدار حكم موضوعي على أدبنا و نعتقد أن نجيب العقريقي حقق شروط هذا العمل المقارن»¹⁹.

والمحاور التي اعتمدها تستجلي لنا عمق اسهاماته، والتي «لا تخرج عن تعريفه للأدب منذ أرسطو إلى حدود عصره، وتقديمه للأدب الفرنسية والايطالية، والاسبانية، والانجليزية، والألمانية، والروسية، والاسكندنافية، ونحو البحث عن أوجه المقارنة منذ الجاهلية إلى غاية سنة 1948، ثم انجاز بيو-بلوغرافيا عن الأدب العربي منذ نهضته، كما قارن الأنواع الأدبية كالفرنسية والعربية»²⁰.

ولم يتميز عمل عبد الرزاق حميدة عن معاصره، حيث كان من دعاة تدريس الأدب المقارن بكلية القاهرة حتى غدا كتابه ثمرة نشاطه التعليمي، فهو «يحلل الشائعات العامة بين بعض الأشعار العربية، مفسرا المشترك بين ثيماتها وثيمات أشعار في الأدب الفرنسي والانجليزي، دون مراعاة العلاقات التاريخية التي تربط بينها مع سطحية هذه الشائعات»²¹.

واتخذ محمد غنيمي هلال موقفا من تأليف عبد الرزاق حميدة دخل منه في صيرورة وصاية أدبية أكثر حول ما أسس على منهجية معينة، والتقى معه عطية عامر الذي رأى أنه لم يقيم بأكثر من

17 : المرجع السابق، ص 569.

18 : مجلة الكتاب يونيو 1848.

19 : المستشرقون، نجيب العقريقي، دار المعارف المصرية، دط، دت، ج1، ص 426.

20 : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، سعيد علوش، ص 568.

21 : المرجع السابق، ص 569.

«جمع ما قام به من تدريس في دار العلوم في كتاب نشر عام 1948 بعنوان الأدب المقارن، ولا صلة لهذا الكتاب بالأدب المقارن بمعناه السليم، وإنما سلك المؤلف فيه طريقة الموازنات الأدبية في أبسط صورها»²².

ويبدو أن هذه الآراء اتفقت على وسم جهود عبد الرزاق حميدة الموازنات الأدبية التي عرفت قديما في الأدب العربي، مما أبعد عنها الجدة في الدرس المقارن.

- إبراهيم سلامة: عميد سابق لكلية آداب القاهرة سنة 1957، تميزت أعماله بالدقة والرؤية الشاملة عن سابقه في معالجة الظواهر الأدبية، نحو دراسته لبلاغة أرسطو بين اليونان والعرب سنة 1950، من كتابه (دراسات في الأدب المقارن سنة 1951)، حيث اتخذت هذه الدراسة اتجاهين؛ اتجاه نظري، وآخر تطبيقي، فالأول عالج فيه وضعية الأدب المقارن ومكوناته²³، ولغنيمي هلال موقف ناحية عمله؛ تمثل في كونه مجرد أفكار عامة ومبهمة، لكن لسعيد علوش رأي آخر، حيث بدا له طموح إبراهيم سلامة واضحا في تقريب مكانة الأدب العربي إلى أساتذة الأدب المقارن في الغرب، ومقدما عمله في قوله: « هذه دراسة تقارنية، وإن شئت قلت إنها دراسة في الأدب المقارن، وإن أردت الدقة والتحديد فقل إنها محاولة في دراسة هذا العلم، أو هي إسهام مع المسهمين في هذه الناحية، التي يحاول العلماء فيها منذ نهاية القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن العشرين أن يعملوا لتكوين أدب خاص يطلق عليه هذا الاسم (الأدب المقارن) يجد له مكانا بين علمين تقررا منذ القديم هما (علم الأدب وعلم التاريخ الأدبي)»²⁴.

وعبارات نحو محاولة، وإسهام مع المسهمين في تصريح إبراهيم سلامة كشفت قصور دراسته، وخطاه الحذرة أمام النقاد، مما دفعهم إلى عد الدراسة مجرد مقارنة تحمل علامات التأسيس الحذرة والتي تتلمس خطاها بين التبني المطلق لدرس يعتبر أوريبيا محضا، ويسعى لتكليفه مع معطيات الأدب الوطني دون أن يثير ذلك في القراء نفورا أو حساسية الغرابة²⁵.

- محمد غنيمي هلال:

أخذ الدرس المقارن في الوطن العربي صورته العلمية المنهجية والسليمة على يد محمد غنيمي هلال فور عودته من البعثة عام 1952، وذلك بتدريسه لطلاب كلية دار العلوم عن طريق برمجة هذه المادة ضمن برامج الجامعة مصدرا بعدها كتابه الرائد (الأدب المقارن سنة 1953) محمدا فيه بدقة

²² : تاريخ الأدب المقارن في مصر، عطية عامر، أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن، عنابة 1983، ص 20.

²³ : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، سعيد علوش، ص 570.

²⁴ : دراسات في الأدب المقارن، إبراهيم سلامة، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1951، ص 8-9.

²⁵ : مكونات الأدب المقارن، سعيد علوش، ص 572.

الأسس العلمية لنظرية الأدب المقارن، والتي تبلورت على يد المدرسة الفرنسية أين تتلمذ ناهلا من كبار أعلامها (جون ماري كاري، وغويارد، وبول ...) وغيره²⁶.

ولا يزال كتاب (الأدب المقارن) لمحمد غنيمي هلال أوفى مرجعا في هذا المجال، محاولا منه استنبات المفاهيم الغربية للأدب المقارن في بيئة عربية، إذ يشير إلى ذلك قائلا: «كتابنا هذا يجوز أن نسميه المدخل لدراسات الأدب المقارن أو الأدب المقارن ومناهج البحث فيه؛ لأني لم أقصد فيه دراسة مسألة خاصة من مسائل الأدب المقارن بل أردت عرض موضوعه إجمالا»²⁷.

وينقسم الكتاب إلى قسمين؛ قسم خاص بالنشأة عالج فيه الثوابت النظرية للمدرسة الفرنسية كما استقرت لدى "ماريوس فرانسوا غويار"، و"بول فان تيغم"، والتي لم يتخذ منها موقفا نقديا، بل ولم يُجَل إلى هذه النقول المقتبسة، وقد أشار إلى ذلك سعيد علوش في كتابه (مكونات الأدب المقارن في العالم العربي) واضعا إياها في جدول تحت عنوان: هجرة الأفكار عن طريق الترجمة والاقتناس دون إحالة²⁸.

وقسم خصه لفروع الدراسات في الأدب المقارن وطرق البحث فيها، مع ضرب أمثلة لمسائل البحث.

ومع هذا لم يفقد غنيمي هلال بريقه في الأدب المقارن، حيث حاول في كتابه تقديم نظرة شاملة للقارئ العربي عن هذا العلم، فنحا فيه نحو تعليميا ورد في صورة منهجية منظمة بداية، ثم توالت مؤلفاته في المجال نفسه، فعمرت المكتبة العربية معارف واسعة في هذا الجانب، حيث أصدر مجموعة من المؤلفات النظرية الأخرى وكذا التطبيقية؛ نحو الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، وليلى والمجنون في الأدبين العربي والفارسي، والمواقف الأدبية.

وخلاصة القول إن جهود جيل هذه المرحلة تثبت التقاءها في كثير من النقاط رغم تفاوت مستويات الدراسة المقارنة، حيث اهتمت بعرض الأدب المقارن كدرس فرنسي إلى الوطن العربي، ثم سعت جاهدة إلى إظهار الروابط بين الأدب العربي والآداب الأخرى دون إغفال بؤادر هذا الدرس عند العرب، إلى جانب إنجاز مؤلفات تعليمية جامعية في المجال نفسه.

وتتضح معالم المنظور المقارني للمادة الأدبية في بحثه من تلك الدراسات التي أفرد لها مجالا مخصصا وأوسع نحو (ليلى والمجنون في الأدبين العربي والفارسي)، حيث يصرح بمنهجه فيها قائلا: «ولقد اتبعت في دراستي هذا المنهج العلمي الذي سبق أن أوضحت في كتابي المسمى الأدب لمقارن

²⁶ : الدراسات الأدبية المقارنة في العالم العربي، علي عشري زايد، مكتبة الشباب، القاهرة، ط2، 1999، ص 46.

²⁷ : الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، ص 8.

²⁸: مكونات الأدب المقارن، علوش، ص 576-583 بتصرف.

واستدعاني شرح موضوع الأدب المقارن في كتابي السابق أن أضرب أمثلة يصح أن يكون كل منها الموضوع بحث خاص في ميدان الأدب المقارن، وكان من بين تلك الأمثلة موضوع هذا الكتاب وهو ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي..»²⁹.

ويكتسب المنظور المقارني هنا علميته من المنهج التاريخي، الذي يتتبع أثر العلاقات القائمة بين الآداب وذلك بالوقوف على الحقائق العلمية لإثبات ذلك، وهذا ما يندرج ضمن النقد التاريخي الذي لا يمكن إغفال قيمته.

3. مرحلة الترويج (1960-1970):

جاءت جهود المرحلة ممثلة في أربع إسهامات؛ جسدتها مجلتان مختصتان في الأدب المقارن، ومؤلفان حملا اسم الأدب المقارن.

أ. محمد محمدي/ جمال الدين بن الشيخ: مثل كل من الشخصيتين كلمته محمدا فيها مسعى مجلته وإصداراتها في مجال الأدب المقارن، فالجدة الأولى صدرت في لبنان من سنة 1959 إلى 1967 بعنوان: "الدراسات الأدبية"، حيث كانت تصدر باللغة العربية واللغة الفارسية، يقدم "محمد محمدي" العدد الأول منها قائلا: «بما أن الأدبين الفارسي والعربي كان في عصور ازدهارها متفاعلين إلى أقصى حدود التفاعل، فلا جرم أن كان من الضروري الاهتمام بالدراسات المقارنة بين اللغتين وتوسيع نطاقها في كل منهما، وهذه ضرورة تليها علينا طبيعة الدراسات الأدبية في العصر الحاضر»³⁰.

تبدو دعوة "محمد محمدي" إلى الاهتمام بالدراسات المقارنة في إطار الأدبين الفارسي والعربي جلية، وذلك رغبة منه في توسيع العلاقات التأثيرية بينهما حاضرا.

وفي موضع آخر من نفس المجلة يشير قائلا: «...إذ من أهم المسائل في الآداب الحية اليوم ليست سرد الوقائع الأدبية فحسب، أو بيان الأدوار التي مرت بالأدب فقط، بل تحليلها وجلاء عللها وعواملها، والظروف المحيطة بها والمؤثرة فيها، والكشف عن جميع المنافذ التي أطل منها ذلك الأدب على الآداب العالمية الأخرى على مر العصور، وكيفية التفاعل الذي حصل بينه وبينها، والعوامل المؤدية إلى هذا التفاعل.. ولا يستطيع باحث مهما بلغ شأوه من التضلع في لغة

²⁹ : ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي، ص 5.

³⁰ : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، علوش ص 592 نقلا عن مقدمة مجلة الدراسات الأدبية الجامعة اللبنانية 1962 ص 1-محمد محمدي.

ما أن يدرس أدبها درسا عميقا شاملا بهذا الشكل من غير أن يدرس الأدب أو الآداب التي تفاعلت معه في أدواره التاريخية المختلفة، ومن غير أن يعرف التيارات الفكرية ..»³¹.

- محمد عبد المنعم خفاجي/ حسن جاد حسن: بعد عشر سنوات من ولادة كتاب الأدب المقارن لمحمد غنيمي هلال سنة 1953، أصدر الجامعي "عبد المنعم خفاجي" كتابه (دراسة في الأدب المقارن) متفائلا بعمله قائلا: «ومنذ أكثر من عشر سنوات دعوت في كتابي مذاهب الأدب إلى الاهتمام بدراسة الأدب المقارن، بل جعلته ضروبا لدراسة الأدب المقارن وتاريخه، ودراسة النقد الأدبي في الوقت نفسه، ونقف اليوم على مشارف مستقبل جديد نهد له، وندعو لتحمل أعبائه الفكرية والأدبية راجين أن يجد الأدب المقارن، وأن يجد دراساته منا في مختلف معاهدنا وجامعاتنا كل تقدير واهتمام»³².

والواضح أن "عبد المنعم خفاجي" أخذ على عاتقه وساطة نقل الأفكار المتداولة حول الدرس المقارن عند "غويار" ومحمد غنيمي هلال، إضافة إلى تفوقه على "حسن جاد" بطريقة التلخيص، حيث يشير إلى ذلك "سعيد علوش" قائلا: «...ومع كل هذه افنحن نخلص إلى أن عبد المنعم خفاجي لا يكتفي بالطريقة التي نهجها حسن جاد في التدريس بالأزهر، بل يتفوق عليه بتقديم تلخيصات ديداكتية محضنة»³³.

إلا أنه في نظره يعيش في وهم لم يمكنه من حل معادلته الصعبة، مما جعل بحثه وسيلة للبرهنة على الاعتقادات والإيديولوجيات السائدة، أزهرية كانت أم ليبرالية بدلا من جعله وسيلة لتحصيل النتائج. ولعل هذه القراءات النقدية لأعمال "عبد المنعم خفاجي" تسفر لنا عن غياب الجديد فيها، فقد اكتفى بتلقي التلخيصات لطلبته فجاء درسه المقارن تعليمي لا إبداعي في مجاله.

بهذا التصور الموجز لمقارني المرحلة الترويجية يمكن القول إن مؤلفاتهم لم تنمر جديدا في الدرس المقارن العربي، وإنما حذت حذو منهج "محمد غنيمي هلال" ومن تتلمذ على أيديهم هذا المقارن، رغم دعوة الكثير منهم إلى التجديد، فقد وقفوا به عند نقطة الصفر محاولين تطويع فرضيات قد خاض فيها التيار النهضوي مما غيب حصول نتائج دقيقة جادة.

عقد الرشد (1970-1984):

31 : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، علوش، ص 594، نفس المجلة ص 3.

32 : الأدب المقارن، عبد المنعم خفاجي، القاهرة 1966، ط1، (مقدمة الكتاب).

33 : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، علوش، ص 598.

سار هذا العقد في اتجاه نزعتين ففرتا به نحو التباين عن ما سبقه من الدراسات، وذلك لوجود اهتمامٍ جدِّي فرض تنوعه في ساحة الدرس المقارن العربي، في نزعة "الأبحاث العربية الإيرانية"، و"نزعة الأبحاث العربية الغربية".

أ. نزعة الأبحاث العربية الإيرانية: حمل لواءها ثلاثة أعمال جامعية؛ أولها لمحمد عبد السلام كفايي (1971)، وثانيها لطفه ندا (1975)، وثالثها لبديع محمد جمعة (1978)، حيث ركزت هذه النزعة على دعم الصلات التاريخية والحضارية، والبحث عن مجال في التطبيقات المقارنة. فبالنسبة لمحمد عبد السلام كفايي جمعت موضوعات كتابه (في الأدب المقارن - دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي) بين تخصصه وثقافته، يظهر ذلك في تصريحه قائلا: « الأدب المقارن منحى جديد من مناحي الدراسة الأدبية ظهر في بعض جامعات الغرب إبان العصور الحديثة، وليس معنى ذلك أن هذا الفن جديد كل الجدة، فقد قدام الأدياء في مختلف الأقطار بألوان من الدراسات المقارنة حين دعت الحاجة إلى ذلك، لكن العصر الحديث هو الذي يرجع إليه الفضل في توسيع مناهج الدراسات الأدبية المقارنة ومحاولة تأصيلها»³⁴.

ويؤكد محمد عبد السلام كفايي على فضل العصر الحديث في توجيه مسار مناهج البحث في الدراسات المقارنة وتأصيلها، وتوسيعها رغم وجود بوادر لها قديما، خاصة على مستوى مصطلح "الأدب المقارن".

ولم يعد عنده مصطلح "الأدب المقارن" مجرد إثبات التلاقي التاريخي في ظل ثنائية التأثير والتأثر، بل أخذ مجالا أوسع؛ إذ أصبح يشمل أي دراسة مقارنة بين الأدب وغيره من ميادين النشاط الفني، ويصعب علينا أن نجد مفهوما للأدب المقارن التقت حوله الآراء في مختلف الأقطار والبيئات الأدبية³⁵. وينطلق "محمد عبد السلام" من تحديده لمفهوم الأدب المقارن من وعيه وتبنيه لميراث المدرسة الأمريكية، وذلك أن علاقة الأدب لا تتوقف عند علاقته بالأدب، وإنما تتجاوز ذلك إلى اتصاله بباقي الفنون من موسيقى وتشكيل وغيرها، ومما يستدل به على هذا قوله: « الأدب المقارن في أمريكا يمكن أن يتناول الحركة الرومانسية في الشعر والموسيقى كما أنه قد يتناول الأدب وعلم النفس، أو الأدب والأخلاق، وهكذا، فالمنهج الأمريكي يدخل في اعتباره ترابط الدراسات الإنسانية وضرورة البحث المقارن لاستجلاء ما يغمض من جوانبها»³⁶.

34 : في الأدب المقارن، عبد السلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1971 (مقدمة).

35 : في الأدب المقارن، عبد السلام، (مقدمة الكتاب).

36 : المرجع السابق، ص 21.

وبهذه النظرة الانفتاحية يتجه بالدرس المقارن العربي وجهة جديدة في إطار تداخل الفنون ووسائل التعبير، ومثال ذلك ما طبقه على الشعر القصصي الفارسي في نشأته التاريخية³⁷ ذات الطابع الإسلامي للتأثير والتأثر.

ولم يختلف "طه ندا" بمنظوره للدرس المقارن عن سابقه من حيث العلاقات الأدبية العربية الفارسية، أو طريقة التقديم، قائلا: «ولا شك في أننا نفيد كثيرا من الاطلاع على هذه الدراسات عند الأوروبيين ولكننا نخطئ حين ننقل هذه الدراسات بحذافيرها دون أن نضع في اعتبارنا اختلاف التاريخ، وفروق البيئة، وتباين الدوافع والأهداف بيننا وبينهم... ونحن حين نقدم درس الأدب المقارن لطلابنا ومثقفينا ينبغي أن نسلك به مسلكا آخر، ومع مراعاة أصول الدراسة ومبادئها يجب أن ننظر إلى شعبنا العربي وإلى الشعوب الأخرى التي خالطته واتصلت به اتصالا وثيقا وكونت بالتعاون معه والتآلف مجتمعا إسلاميا كبيرا، وأن ننظر بعد ذلك إلى حصيلة هذا الاتصال والامتزاج في أنماط الحياة وطرائق التفكير ووسائل التعبير»³⁸.

ولعل الناظر في قوله يلمس دعوة ملححة منه في كتابه إلى وضع حد فاصل بين الدراسات الأوروبية وتأثيراتها من جهة، وإلى ضرورة الاهتمام بمقومات الدرس العربي وتأثيراته الإسلامية التي تسمه، مع بيان تأثير اللغة العربية على الآداب الأخرى من جهة أخرى، وبهذه الدعوة نشق بالدرس المقارن طريقا مغايرا لطريق الأوروبيين، حيث يضيف مؤكدا مرة أخرى: «ومن الواضح بعد هذا أننا حين ندرس الأدب المقارن نشق طريقا مغايرا لطريق الأوروبيين تختلف فيه مادة الدراسة وبواعثها وأهدافها، فاللغة العربية وما اتصل بها من لغات وآداب تأثرت بها وأثرت فيها هي محور دراستنا»³⁹.

ب. نزعة الأبحاث العربية الغربية: نزعة غيرت من عنصري الثنائية، لتكتفي بالأساس وتضم إليه الغربية، نعم بنت هذه النزعة أبحاثها على الثنائية العربية الغربية، والتي حمل لواءها كل من "ريمون طحان" بكتابه (الأدب المقارن والأدب العام 1972)، الذي يلقي بظلاله على مصطلح الأدب المقارن والأدب العام وما يتعلق بهما في بيئتهما، معلنا قطيعة مع التراث العربي، وكأنه عقد علاقة الترجمة الآمنة مع الإنتاج الأوروبي، وجاء ذلك في قوله: «إذا رحنا نبحت في تاريخ الآداب الأوروبية سوف نجد ظواهر تعود دراستها اليوم إلى الأدب المقارن...»⁴⁰.

³⁷ : المرجع نفسه، ص 255

³⁸ : الأدب المقارن، طه ندا، دار النهضة العربية بيروت، المقدمة، 1975

³⁹ : المرجع السابق، ص 716.

⁴⁰ : الأدب المقارن والأدب العام، ريمون طحان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1972، ص16.

من هذه الزاوية يتضح لنا أن حاملي لواء هذه النزعة يدينون لمنهج " محمد غنيمي هلال " في الدرس المقارن بأبحاثهم، غير أنهم يشددون في دعوتهم على ضرورة تطبيق النقد في النماذج التطبيقية للظواهر المدروسة، كما نود الإشارة إلى أننا لم نذكر بعض الأعمال لضيق المساحة، وهي جهود مثمرة في حقل الدرس المقارن من قبيل "حسام الخطيب" في كتابه (الأدب المقارن) الصادر سنة 1982، والذي جمع فيه بين التنظير والتطبيق، واتخذ من القصة السورية أمودجا للتأثيرات الأجنبية في التطبيق، ونحو الباحث "الطاهر مكي" في كتابه (الأدب المقارن) الصادر سنة 1987، الذي يقدم لنا تجربة رائدة وفق أفق موسوعي ساعيا فيها إلى الموازنة بين الآداب العالمية، وتجاوز مرحلة التأسيس عند "محمد غنيمي هلال"؛ لدفع عجلة التقدم للدرس المقارن العربي، وغيرهم من المقارنين العرب الذين لم نشر إليهم هنا.

1. تدريس الدرس المقارن بالجامعات العربية وعقد الملتقيات:

تعد الجامعة أول مكان احتضن هذا التخصص الجديد منذ أن وفد من الغرب، وقد سبق وأن أسلفنا الذكر عن طابعه بهذا الوسط المعرفي على يد أساتذته، فقد توجه توجها تعليميا بها، حيث «تبدأ مرحلة جديدة في مصر عندما تأخذ كلمة مقارن تظهر بوضوح في مجال الدراسات الأدبية، وتحتل الدراسة المقارنة مكانا في مناهج الدراسات في بعض المعاهد العليا»⁴¹.

من هذه الرؤية بدأ الدرس المقارن يأخذ مقعده بالجامعة العربية كمادة يستلزم على الطالب العربي استيعابها وتكييفها مع التراث العربي، يؤكد عطية عامر ذلك كاشفا عن تصريح قرار المجلس الأعلى بهذا الشأن قائلا: «وتبدأ مرحلة جديدة من تاريخ الأدب المقارن عندما قرر المجلس الأعلى لدار العلوم في جلسة عقدها في الثالث من أكتوبر 1943 أن يصبح الأدب المقارن مادة جامعية مستقلة تدرس في السنتين الثالثة والرابعة، ولكن لم يقرر المجلس الأعلى إنشاء قسم خاص بالأدب المقارن، وإنما صار فرعا من قسم يسمى "قسم الأدب"»⁴².

أما الملتقيات فكانت مجرد أمل يراود المقارنين العرب بعدما كان أمنية إلى أن تحقق الأمل، فصار حقيقة⁴³، جسدتها أرض الجزائر في عناية سنة 1983، بانعقاد أول ملتقى دولي للأدب المقارن، هذا الملتقى الذي سجل اقبالا كبيرا لكثير من الجهود العربية على الصعيد التنظيري والتطبيقي، كذا مشاركة الأجانب مما ساهم في تشكيل رؤية انفتاحية على الآخر، وسنفرد لهذه الملتقيات حديثا في

41 : دراسات في الأدب المقارن، عطية عامر، ص 17.

42 : المرجع السابق، ص 19.

43 : واقع الدراسات المقارنة بالعالم العربي، ص 88.

عنصر التأليف المنهجي عند المغرب العربي كونهم أثمروا جهدا في هذا النوع من الدراسات على خلاف المشاركة الذين كان لهم الفضل في الريادة العربية للدرس المقارن.

واقع الأدب المقارن في المغرب العربي:

لقي الأدب المقارن اهتماما كبيرا في جامعات المغرب العربي نظير الاهتمام به في جامعات المشرق العربي، حيث اعتمد مقرا جامعيها على غرار الجزائر، والمغرب الأقصى، وتونس، وقبل أن نشير إلى مجال التأليف في المغرب العربي يجدر بنا أن نشير إلى بعض الحقائق التاريخية التي تثبت استقبال جامعاتها لهذا التخصص، وحرى بنا أن نضرب كمثال لهذه الحقائق اعتماده كمقياس بقسم اللغة والأدب العربي بالجامعة الجزائرية، وذلك سنة 1968، لطلبة السنة الثالثة ليسانس⁴⁴.

أما بالمغرب الأقصى فكان "أمجد الطرابلسي" السوري الجنسية يتفرد بتدريس هذا المقياس، وكذلك مقياس النقد الأدبي، محاولا توجيه النقد الأدبي وجهة النقد المقارن جامعا بين التنظير والتطبيق⁴⁵.

ومع كثرة احتفاء الجامعات المغربية بتدريس هذا التخصص الذي عرف انتعاشا جديدا، وبسط مساحة واسعة لنفسه في حدود سنة 1990 ركز "معهد الدراسات الإفريقية" على الموروث الإفريقي والمغربي المشترك، وعمد على دراسة لغات ولهجات إفريقيا السوداء، وإنشاء مركز الدراسات في الأدب المقارن والتعليمية (Centre d'études et literatures Compares et de didactiques Groupe d'études) من قبل فريق الدراسات المغربية، وشارك في تكوين بعض الباحثين أمثال "عبد الله حاموني"؛ الذي ابتغى الابتعاد عن النموذج الأكاديمي الفرنسي السائد بحكم تكوين الأساتذة على يد أساتذة من المشرق العربي⁴⁶.

لقي الأدب المقارن اهتماما كبيرا في جامعات المغرب العربي نظير الاهتمام به في جامعات المشرق العربي، حيث اعتمد مقرا جامعيها على غرار الجزائر، والمغرب الأقصى، وتونس، وقبل أن نشير إلى مجال التأليف في المغرب العربي يجدر بنا أن نشير إلى بعض الحقائق التاريخية التي تثبت استقبال جامعاتها لهذا التخصص، وحرى بنا أن نضرب كمثال لهذه الحقائق اعتماده كمقياس بقسم اللغة والأدب العربي بالجامعة الجزائرية، وذلك سنة 1968، لطلبة السنة الثالثة ليسانس⁴⁷.

أما بالمغرب الأقصى فكان "أمجد الطرابلسي" السوري الجنسية يتفرد بتدريس هذا المقياس، وكذلك مقياس النقد الأدبي، محاولا توجيه النقد الأدبي وجهة النقد المقارن جامعا بين التنظير والتطبيق⁴⁸.

44 : البرنامج الوطني لأقسام اللغة العربية وآدابه المعتمد في الجامعة الجزائرية نقلا عن الأطروحة ص 96.

45 : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، سعيد علوش، 667.

46 : واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، ص 97.

47 : البرنامج الوطني لأقسام اللغة العربية وآدابه المعتمد في الجامعة الجزائرية نقلا عن الأطروحة ص 96.

48 : مكونات الأدب المقارن في العالم العربي، سعيد علوش، 667.

ومع كثرة احتفاء الجامعات المغربية بتدريس هذا التخصص الذي عرف انتعاشا جديدا، وبسط مساحة واسعة لنفسه في حدود سنة 1990 ركز "معهد الدراسات الإفريقية" على الموروث الإفريقي والمغربي المشترك، وعمد على دراسة لغات ولهجات إفريقيا السوداء، وإنشاء مركز الدراسات في الأدب المقارن والتعليمية (Centre d'études et literatures Compares et de didactiques Groupe d'études) من قبل فريق الدراسات المغربية، وشارك في تكوين بعض الباحثين أمثال "عبد الله حاموني"؛ الذي ابتغى الابتعاد عن النموذج الأكاديمي الفرنسي السائد بحكم تكوين الأساتذة على يد أساتذة من المشرق العربي⁴⁹.

المحاضرة الخامسة: دور الترجمة في الادب المقارن

الترجمة تصبح ضرورة حين يتعذر اتقان اللغة الأجنبية، فهي تساعد على الطلاع والإحاطة بروائع الأدب العالمي، كما تسمح للقراء والمثقفين بمعرفة معارف غيرهم، ومن الباحثين الأوائل الذين أشادوا بأهمية الترجمة مدام دي ستايل⁵⁰، من مقال لها كشفت فيه عن دور الترجمة والمترجمين في عملية التبادل الثقافي، وفي إيصال المعرفة والآداب إلى مختلف الأوطان والقراء.

والترجمة نوعان؛ ترجمة مباشرة ينتقل فيها المترجم من الأصل إلى الفرع، غير أنه في بعض الأحيان يغيب النص الأصل، وفي هذه الحالة يلجأ المترجم إلى اعتماد النصوص المترجمة، وهناك تصبح الترجمة غير مباشرة. والأدب المقارن يستعين كثيرا بهذه الوسيلة غير أن هذا لا يعني تفعيلها دائما، إذ كلما اعتمد الباحث النص الأصلي كلما كانت الدراسة أكثر علمية.

وللترجمة دور هام يسعى في تحقيق هدفين هما:

- اعتماد الثقافة العربية بمعطيات الثقافات الأخرى بما ابتدعه رجال الفكر في العالم من آراء ونظريات وأفكار غيرت مسارات الحضارة البشرية وأثرها فيها، ومما أوجده رجال العلم والأدب والفن من آثار ومؤلفات وأبحاث قيمة، ولا سيما في مضمار العلوم الجديدة والتقنيات المعقدة التي صارت سمة هذا العصر ووسيلته تماشيا مع التطور المادي والاجتماعي فيه.

- تعريف الناطقين باللغات الأجنبية الرئيسية بروائع الفكر العربي قديمة وحديثة، وفي ذلك وصل للثقافة العربية بالثقافات الأخرى، وايصال القضايا العربية إلى أذهان الآخرين، وتشكيل صورة حقيقية للغربي في عقول آثرت فيها الدعايات المغرضة والمعادية للعرب.

⁴⁹ : واقع الدراسات المقارنة في المغرب العربي، ص 97.

وللترجمة دور فعال في صوغ الهوية الثقافية المتميزة مضمونا وأبعادا، ولهذا ينبغي ألا تكون عملا عشوائيا تحكمه الأهواء والمصالح بل عملا مخططا هادفا يرمي إلى رقد (الرافد والمنهل) الثقافة القومية واخصابها، ومنه وجب الاعتناء بها من مؤسسات قادرة وأمينة ونافعة.

وفي علاقة الترجمة بالأدب المقارن تشير الدراسات إلى أن العلاقة بينهما علاقة معقدة؛ فالأدب المقارن بمختلف مدارسه واتجاهاته يجعل الترجمة واحدة من ميادينه، في حين ترى الدراسات الحديثة والمعاصرة أن الأدب المقارن تابع لدراسات الترجمة، حيث تقول سوزان باسينت-أستاذة دراسات الترجمة في جامعة لندن-في موقفها من الأدب المقارن: (لقد ولّت أيام عظمة الأدب المقارن بوصفه دراسة أكاديمية، وغيرت أبحاث المناقفة التي أجريت في إطار دراسات المرأة ونظرية المرأة ما بعد الاستعمار والدراسات الثقافية وجه الدراسات الأدبية بصفة عامة، وينبغي علينا من الآن فصاعدا أن ننظر إلى دراسات الترجمة بوصفها الدراسة الأكاديمية الرئيسية وإلى الأدب المقارن بوصفه فرعا فيها من مجالات الدراسة بها).

وتظهر عناية داسي الأدب المقارن والدراسات الترجمة بنقل (نص المصدر) بتفاوت في كيفية التعامل مع هذا النقل، إذ كل منها يأخذ قضية تطور الثقافة (نص الهدف) بعين الاعتبار، ومنه تغدو هذه العلاقة بين مد وجزر. وعليه فكل منها يحكمهما الشروع في حركة نقل النص والنظر في أوجه الاختلاف والائتلاف فيه، وكلاهما يدعن امثالا لحاجة نص الهدف إلى جني ثمرة العلم إلى الغاية المقصودة.

ونحن أمام هذه الإشكاليات التي باتت ماثورة في شأن العلاقة بين الأدب المقارن والترجمة، فقول: ما العلاقة بين دراسات الترجمة والأدب المقارن؟ وهل الأدب المقارن في وضع حرج من تنامي دور الترجمة؟ وما الذي جعل الترجمة تتداخل مع الأدب المقارن؟ وهل الترجمة وقيّة في مهامها أو أنها على حد تعبير القول الفرنسي المأثور كالحائانات الجميلات (les belles infideles).

تؤكد باسينت " أن العلاقة بينهما علاقة إشكالية حيث قدمت جملة من الأمثلة التي توضح فيها رفض كثير من الدارسين المقارنين الترجمة الأدبية، فدراسات الترجمة تقوم على منهجيات متنوعة، ولقد أصبحت مجالا مبنيا بحق وربما كان من الأفضل تسميتها «الدراسات بين الثقافية»، وهي ليست فرعا من الأدب المقارن، فهذا الأخير يعاني أزمة تأتي من التراث الوضعي الذي أورثناه إياه القرن التاسع عشر⁵⁰.

ويقول "أندرية لوفيفير: " ليست الترجمة مجرد نافذة مفتوحة على عالم آخر أو أيا من هذه التعبيرات الورعة المستهلكة، ولكنها قناة تفتح وكثيرا ما يقابل هذا بأحجام وليس بالقليل، وتنفذ من خلالها التأثيرات الأجنبية لتخترق الثقافة المحلية، وتتحداهما، وربما أيضا لكي تحولها عن مسارها".

وتجادل باسينت ولوفيفير في مقدمتها لمجموعة المقالات بعنوان الترجمة والتاريخ والثقافة بأن الوقت حان لإعادة التفكير في تهميش الترجمة داخل الادب المقارن.

: الادب المقارن مقدمة نقدية، سوزان باسينت(مقال : من الأدب المقارن إلى الترجمة)، ص 180. 50

وتتم علاقة الترجمة بالأدب المقارن من حضورها في التفاعل مع النص الهدف، ومن عامل سياق التأثير والتأثر في لغة الهدف.

ملاحظة: بالنسبة للأنموذج التطبيقي يمكنكم الاطلاع عليه في الملف المرسل إليكم لياسمينه فيدوح بخصوص ترجمات قصص ألف ليلة وليلة".

المحاضرة السادسة: أثر الأدب العربي في الأدب الفارسي

تمهيد:

تقوم آداب الأمم على الامتزاج والعطاء فيما بينها إلا أنه ينبغي للأمة أن تراقب ذلك الامتزاج، بحيث لا تذوب شخصيتها في ظل الاقتباسات والاستعارات، وفي الوقت نفسه لا تحرم عقول مبدعيها من الاطلاع على الجديد الذي يثري ويغني أدبها، فالأمة التي تسلك هذا السبيل تجعل أدبها حيًا، فالأدب الحيّ إذن هو ذو صفات تدل على الشخصية المتينة، بحيث يمنح نسغا ينعش به آداب الأمم الأخرى، كما يتقبل الجديد ويرحب بالتأثير مادام هذا الجديد ينفعه وينعشه ويدفعه إلى الأمام علما أن الأدب الحي ينبغي أن يتوفر على جذور عميقة وركائز ثابتة تجعله يقف صامدا أمام رياح التأثير، فلا تقلعه من جذوره، والأمر هاهنا ينطبق على الأدب العربي وعلاقاته مع الآداب الأخرى نحو الأدب الفارسي، إذ تطعم كل منهما من الآخر بما يوافق ميزاته وخصائصه.

-مظاهر التأثير بين الادب العربي والأدب الفارسي:

تمثل الترجمة أول مظهر لتأثر الأدب الفارسي بالأدب العربي سواء من الإيرانية القديمة للعربية منذ العباسيين أم من العربية للفارسية بعد الفتح الإسلامي، وعن طريق الترجمة عنيت اللغة العربية في الأجناس الأدبية، ويشير محمد غنيمي هلال إلى أن الترجمة من العربية إلى الفارسية كانت أثرا أعمق في أدب الفرس بعد الفتح، فبفضلها وجد النثر الفارسي وتطور، واتبع في تطوره نفس المراحل التي مر بها النثر العربي⁵¹

ارتقت اللغة الفارسية إلى المكانة الأدبية بفضل احتذائها اللغة العربية في صور الترجمة، ومن بين الجهود التي سارت على هذا النحو: الوزير الساماني أبي علي محمد البلعمي في ترجمته لتاريخ الطبري في أواخر القرن العاشر ميلادي متصرفا فيه، حيث قال: "لما وجدت الكتاب يحتوي على كثير من الحكم والأمثال وعلى شرح آيات قرآنية، وأشعار جميلة وعلى سير الأنبياء والملوك اجتهدت في ترجمته إلى اللغة الفارسية طالبا من الله العون"⁵². وبهذه الترجمة تم للنثر الفارسي وجوده الفني، وأبدع أدباء فرس فيه على غرار أبي المعالي نصر الله وعمله في كليله ودمنه الذي ترجمه من العربية إلى الفارسية حوالي سنة 539، وقد تصرف فيه تصرفا جعله أكثر تميزا. وبفضل الترجمة تمت عملية التبادل على مستوى الأجناس الأدبية النثرية، والتاريخ والمقامة، والقصة على لسان الحيوان، وكذا أدب الحكمة والسلوك، إلى جانب أدب الأقصوصات الشعبية ذات الطابع الخلفي.

⁵¹ : الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، ص 366-367.

⁵² : المصدر السابق، ص 368.

دون أن ننسى الترجمة على مستوى الرسائل الديوانية والإخوانية وكذا الأدبية أو ما يسمى بفن الترسل، إضافة إلى جنس الشعر خاصة على مستوى الحوار وما يعرف بالمقدمة الطللية والأغراض الشعرية من رثاء ومدح وهجاء والغزل نحو تأثير أبي العلاء المعري بشكواه وحزنه على عمر الخيام الفارسي في شعره، وغيرها من النماذج، وسنكتفي بذكر أموج ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي لمحمد غنيمي هلال.

استطاع محمد غنيمي هلال أن يقف عند معنى الجنون الذي استعاره الصوفية من مجنون ليلي وينظر له من المنظور القيمي ليظهر لنا أن الجنون عندهم فضيلة أخلاقية ذات وازع ديني يحمل كل ما أوتي من معاني الزهد والمحبة وطريق النجاة، لأن الوجد عند المتصوفة لا يكون إلا حين يستغرق الحب لله في التفكير فيه فيغيب عن نفسه، على أن المتبع لموقف باحثنا يجده يربط معناه بما وجد عند الرومانتيكيين، وهو مظهر قيمي مذهبي يجسد الإغراق العاطفي.

وإذا نظرنا إلى مفهوم القيم الحضارية نجد لغنيمي هلال وقفة أخرى تختلف عن سابقتها وهو يقرأ نصوص مجنون ليلي في الأدبين العربي والفارسي، «فكثيرا من شعراء الفرس من استعار خواص البيئة العربية وعاداتها ومناظرها لكي يضعوا في قالبها تلك الأحداث التي تكون في القصة...»⁵³.

ومن النماذج التي ساقها وهو يطرح هذه المقارنة قوله: «نرى المجنون في قصة نظامي يعيش في الصحاري والجبال والوديان.. ويعرض المجنون ليلي في مخيمها فترفع له الستار ويظلان دون الخيمة يتناجيان.. وكذلك يصف خسرو الدهلوي سرور قبيلة قيس بمولده، وكيف بسط والده نزل الضيافة لمن أقبلوا عليه في ذلك اليوم..»⁵⁴.

وهذا الوصف ينم عن بساطة العيش في البيئة العربية وبدائها، التي توضح تفكير الفرد العربي، والتي يحاول منها المتأثر تبيان قساوتها مع حب شديد ووله وجنون.

يقرّ محمد غنيمي هلال من قراءته لنصوص مجنون ليلي بين الأدبين العربي والفارسي بالصبغة الجديدة التي أكسبتها النصوص الشعرية الفارسية، وهو إقرار بالاختلاف الحاصل بين البيئتين والموقفين، حيث اكتسبت قصص ليلي والمجنون في الأدب الفارسي صبغة جديدة في الوصف في بعض المواقف التي تبعد عن حقيقة البيئة العربية البدوية، وذلك كما في وصف المكتب الذي تعلم فيه قيس كما سبق أن أشرنا، وهناك أمثلة أخرى لبعض شعراء الفرس في وصفهم البيئة العربية، نذكر منها ما كان سيهب فيه أولئك الشعراء في وصف الحدائق الغناء والبساتين الناضرة التي كانت تخرج ليلي إليها للتنزه، وبخاصة حين يصفون أشجار السرو والأزهار الكثيرة والفواكه المتعددة، فقد كانوا يستعملون في ذلك ذكرياتهم لما رأوا من حدائق وبساتين في بلادهم...⁵⁵.

⁵³ : ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي، ص 213.

⁵⁴ : المصدر السابق، ص 214.

⁵⁵ : المصدر نفسه، ص 239-240.

ولعل ما نجده من صور الطبيعة في مخيلة وذكريات الفرس نحو البيئة العربية، التي عرفت بقساوة مناخها الصحراوي، وبساطة عيشها بتلك النماذج الشعرية التي ساقها في دراسته وهي كثيرة هو أحد المكونات الحيوية في تعزيز القيمة الحضارية لطبيعة الفرس وتجسيدها في قصة ليلي والمجنون، إذ لا يلبث أن يضيف الشاعر الفارسي المتأثر إبحاءاته الرومانسية الفاتنة كالتي هم الشاعر الفارسي "هاتفني" بوصفها، نحو وصفه لجبل نجد مكسوا بالثلوج، ويسير فيه قيس حافي القدمين ثم يصف مرة أخرى قيسا وهو يغط بستانيا ألا يجتث شجرة من شجر السرو لأنها شبيهة بقدر ليلي، فيعتذر البستاني له أن يرى ديسمبر وثلوجه تضطره إلى قطع هذه الشجرة ليصطلي بناها أنباؤه المقرورون الفقراء...⁵⁶.

لقد حاول محمد غنيمي هلال في بحثه الأدبي وهو يدرس نصوص ليلي والمجنون كأحد نماذجه البحثية بالدرس المقارن من المنظور القيمي أن يقدم منظومة من المبادئ والعادات والتقاليد والمذاهب الفكرية كانت في جملتها قيما حضارية استعارها الأدب الفارسي من الأدب العربي وصبغها بصبغته الخاصة، والتي يلمس القارئ منها دعوة ملحة في الالتزام بما خاصة تلك القيم الدينية المشبعة بالمذهب الصوفي والفكر الفلسفي الممزوج بالبيان والفن الموحى للجمال والحب الإلهي.

المحاضرة السابعة: طريقة إعداد الدراسة المقارنة:

أ. لا بد أن يكون الباحث المقارن على علم بالحقائق التاريخية للعصر الذي يدرسه، كي يستطيع إحلال الإنتاج الأدبي محله من الحوادث التاريخية التي تؤثر في توجيهه ومجراه، فلدراسة نشأة الأدب الفارسي بعد الفتح العربي مثلا لا بد من أن تدرس ألوان النزاع السياسي في أواخر القرن العاشر والصلوات بين الدويلات في إيران وبين الخلفاء العباسيين في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر، وهو الوقت الذي وصل إلينا فيه أقدم ما ألف من نثر فارسي، ويجب كذلك أن يدرس ما مهد لهذا الإنتاج من حركة الشعوبية، ومن تاريخ الحركة العقلية بين إيران وبين العرب، فمعرفة التاريخ، إذن شرط جوهري للدراسات المقارنة⁵⁷.

يؤكد الباحث غنيمي هلال وكذا فرنسوا غويار على شرط دراية الباحث المقارن بالجانب التاريخي، حيث اشترط العدة التاريخية التي تتصل بالأدلة والبراهين المساعدة لكشف الصلات بين الظاهرتين المدروستين.

⁵⁶ : ليلي والمجنون في الأدبين العربي والفارسي ، ص 240.

⁵⁷ : الأدب المقارن، غنيمي هلال، ص 89.

ب. يستوجب في الباحث المقارن أن يكون مؤرخا للعلاقات الأدبية، عالما وافيا بما في بلدانها⁵⁸، خاصة تلك التي بصدد البحث فيها، إن لم يكن في كل عصورها فعلى الأقل في العصر الذي هو موضوع دراسته، وما يتصل به مما يمكن أن يكون قد أثر في إنتاجه الأدبي⁵⁹. ولا تكاد تنفك فكرة التاريخ والتأريخ عن الباحث المقارن، حيث عدت شرطا أساسا في قيام الدراسة المقارنة.

ج. قراءة النصوص بلغاتها الأصلية، ولا يعتمد على الترجمة لأنها تنقل عملا إما ناقصا وإما زيادة من عند المترجم إن كان مبدعا فيها، "فما هي إلا طريقة ناقصة لا يصح أن يلجأ إليها إذا أريد تقييم تأثير وتأثر الأدبيين على وجههما الصحيح، إذ أن لكل لغة خصائص وروحا لا تفهم إلا فيها ولا تتذوق إلا بقراءة نصوصها"⁶⁰، ويسوق غويار مثلا في هذا الصدد قائلا: "فكثيرون من الرومنطيين ذكروا غوته وهم لا يعرفون الألمانية، بل اكتفوا بما وصلهم منه مترجما، من هنا لا يمكن تقدير مدى تأثير غوته عليهم إلا بعد تقدير الفارق في غوته بين الموضوع والمترجم"⁶¹.

د. الإلمام بالمراجع والمصادر الخاصة بدراسته المقارنة، أو ما يسمى بالبيبلوغرافية، متقنا لطريقة البحث فيها منهجا ومنهجية، "فمثلا من يريد البحث في الصلات الأدبية العربية الفارسية عليه أن يبحث فيما يخص اللغة العربية ونصوصها، في كتب الأدباء والمؤرخين الذين كتبوا بالعربية وهم من أصل فارسي، كالطبري وحمزة الأصفهاني، وفيما يخص الفارسية يجب أن يرجع إلى النصوص الأدبية التي ترجمت عن العربية، ثم إلى النصوص التي حوكت فيها أصل عربي أو تأثرت به"⁶².

وقد خطا الباحثون الأوروبيون خطوات واسعة في تزويد مكباتهم بالمراجع والمصادر في الدرس المقارن، حتى يتمكن طالب البحث المقارن من إجراء دراسته في المجال نفسه على النحو الذي سطرت عليه، وأقدم هذه القوائم تلك التي أعدها بول بيتز سنة 1900، وهي قائمة لم تطبع ثانية إلا في عام 1903، وفيما بين عامي 1908 و1920 أعد بلدنسبرجيه مع بعض معاونيه من فرنسا والخارج إحصاء نقديا كبيرا لمراجع الأدب المقارن، صنفه زمرا على أساس العلاقات والموضوعات، ولم ينشر إلا في عام 1950 بعد أن زاد عليه صاحبه بمعية زميله فريدريش في مادته كثيرا وصدر بعنوان: مراجع الأدب المقارن (littérature bibliography of comparative)، وجاء في 700 صفحة تضم ثلاث وثلاثين ألف مرجع، ويليه الفهرس التاريخي الحديث للأدب الحديثة (Repertoire

58 : الأدب المقارن، غويار، ص 16.

59 : الأدب المقارن، غنيمي هلال، ص 90.

60 : المصدر السابق، ص 90.

61 : الأدب المقارن، غويار، ص 16.

62 : الأدب المقارن، غنيمي هلال، ص 91.

(chronologique des litteratures modernes) أشرف على إعداد بول فان تيغم⁶³،

وغيرها من الكتب والمعاجم التي أشارت إليها الدراسات والأبحاث العربية مترجمة وبلغتها الأصلية.

المحاضرة الثامنة: نماذج من حقل الصورائية

صورة الأجنبي في أدب ما: قد تكون جزئية كصورة اسبانيا في شعر شوقي، والباحث المقارن يتوجب عليه دراسة حياة المؤلف ليقف على صلته بالبلد، ثم يحدد مصدر المعلومات التي قدمها، وبعدها يبين مستوى الصورة من حيث الصدق والشمولية، وقد تعالج صورة أمة من قبل مجموعة من الأدباء، وهذا النوع من الدراسات يمكن الأمة من معرفة نفسها في نظر غيرها، وتعمل على السعي للارتقاء والتصحيح⁶⁴.

نماذج من حقل الصورة والصورائية:

صورة اليهود في رواية "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني:

سعيد وصفية زوجان فلسطينيان يعودان إلى حيفا سنة 1967 بعد غياب دام عشرين سنة، عادا يتفقدان بيتا هجره عنة، وطفلا أضعاه سهوا، لم يتفاجأ حين وجدا بيتهما تسكنه أرملة يهودية، ولكن المفاجأة الكبرى أن ولدهما خلدون أصبح دوف جنديا يهوديا يخدم في الجيش الإسرائيلي، ويدور حوار بين سعيد والأرملة اليهودية، وحوار أعنف منه بين سعيد وخلدون-عفا- *دوف، نوقش فيه أكثر من قصة، وطرح أكثر من سؤال أجيب عنه بأكثر من إجابة متعثرة وكانت الإجابة الوحيدة المؤكدة هي أن خلدون قد ضاع وحلّ محلّه دوف، وكانت أمنية سعيد في آخر الرواية أن يكون ابنه خالد قد التحق بالفدائيين أثناء غيابه بعد أن كان يهدده بالتبرؤ منه إن هو صمم على موقفه الفدائي.

ومن الصور التي جسدها اليهودي في الرواية ما يلي:

-اليهودي الآخر/الحاضر الغائب: يتناقش سعيد مع زوجته صفية في طريق عودتهما إلى حيفا عن التغيرات التي طرأت على حيفا أثناء غيابهما عنها عشرين سنة، ويحيل الحديث إلى الآخر /الحاضر الغائب من خلال ضمير الغائب "هو" نحو: "طوال عشرين سنة كنت أتصور أن بوابة منليوم ستفتح ذات يوم، ولكن أبدا لم أتصور أنها ستفتح من الناحية الأخرى، لم يكن ذلك يخطر على بالي قط، ولذلك حين فتحوها هم بدا لي الأمر مرعبا وسخيفا، وإلى حد كبير مهينا تماما"⁶⁵. أشار كنفاني إلى الآخر/اليهود دون ذكر اسمهم أو صفتهم بل بصيغة "هم" وكأن في تجاوزهم أو تجاهلهم تأكيداً على حضورهم القوي في وعيه تماما مثلما كانت صفية تشير إلى ابنهم المفقود بصيغة "هو"، وارتبطت "هم" بالفاعلية واتخاذ القرار والامسك بزمام الأمور، يستمر هذا التوجه في الأسطر الآتية: "لقد فتحوا الحدود فور أن أُنْهَو الاحتلال فجأة وفورا؟؟" لم يحدث ذلك في أي حرب في التاريخ إنهم يقولون لنا تفضلوا انظروا، كيف أنا أحسن منكم وأكثر رقيا"⁶⁶.

63 : الأدب المقارن، اصوله ومناهجه، الطاهر مكي، ص 649-650.

64 : الأدب المقارن، غنيمي هلال، 419-420(بتصرف).

65 : عائد إلى حيفا، غسان كنفاني، دار العودة، بيروت، 1969، ص 12.

66 : المصدر السابق، ص 26

-اليهودي/الآخر المحتل: يعود الكاتب بذاكرة بطله سعيد عشرين سنة خلت ويصف تفاصيل اجتياح حيفا وهروبه مع زوجته قسرا خارج الديار ناسين في لحظة من اللاوعي التائه أو الوعي المكثف صغيرهما خلدون ويأتي الآخر/اليهود بصفته سببا في المأساة في إشارة نصية عابرة بالنسبة لظاهاها" حين دوى الرصاص، انطلق الناس يقولون إن الإنكليز واليهود أخذوا يكتسحون حيفا"⁶⁷.

-اليهودي/الآخر المقهور: كانت ميريام مختلفة عن زوجها الذي كان يتعامل مع تجربة الوطن الجدي بشيء من التور وعدم النضج واللامبالاة، فهي كانت أكثر وعيا ونضجا، تتخطفها التفاصيل الدقيقة قبيل التجربة وبعدها، ونعي بها تفاسي مقتل أخيها الصغير على يد الجنود الألمان، وتفاسيل مقتل الطفل العربي على يد شابيين من الهاغاناه: " قالت زوجته ميريام: كان طفلا عربيا ميتا وقد رأيتة مكسو بالدم" وأخذها زوجها إلى الرصيف الآخر وسألها: كيف عرفت أنه طفل عربي؟ ألم تر كيف ألقوه في الشاحنة كأنه حطبة؟ لو كان يهوديا لما فعلوا ذلك.

وأراد أن يسألها لماذا إلا أنه لحظ وجهها وصمت"⁶⁸. يخفف هذا النص من صورة اليهودي النمطية المليئة بالقسوة وانعدام أي نبض إنساني، فجاءت صورة ميريام تنبض بالإنسانية، امرأة قتل أخوها أمام عينيها على يد الألمان واعتقل أبوها، وابتليت بالعقم، ثم ترى بأمّ عينيها طفلا يلقي في شاحنة الموتى كقطعة رخيصة فيهتز ضميرها بصورة طبيعية غير مبالغ فيها ولا متعسفة.

*صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية(ما لاتذروه الرياح لمحمد عرعار أنموذجا-):

صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية

"ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار العالي(أنموذجا)

الطالبة:سوعاد بن معمر

دراسات مقارنة وتواصل حضاري

جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان

كلية الآداب واللغات

ملخص:

تعالج هذه الدراسة صورة الفرنسي في الرواية الجزائرية ، والتي ظلت عالقة في أذهان كتابها مهيمنة على إبداعاتهم ، محاولة كشف صورها وأبعادها.

وجاءت الدراسة وفق العناصر الآتية : مفهوم الصورة في الشخصية الروائية.

⁶⁷ : الرواية، ص 25.

⁶⁸ : الرواية، ص 41.

-رواية ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار.

-صورة المرأة الفرنسية/ صورة الجندي الفرنسي.

Abstract:

This study deals with the image of the Algerian French in the novel, which has been stuck in the minds of her dominant on their creations, the attempt to reveal .their forms and dimensions

The study came to the following elements: the concept of a personal picture of the feature.

- A NOVEL is not tangled wind Mohammed Araare.

-the image of women afp/ Image French soldier .

1. مفهوم الصورة في الشخصية الروائية:

إن دراسة صورة الشعب في آداب شعب آخر تعتمد بالدرجة الأولى على الشخصيات الواردة في العمل الأدبي، وذلك من خلال حصر النماذج الموجودة فيه حتى يمكن استخلاص الرؤى والصور، والخروج بتصور حول الشعب المؤثر والشعب المتأثر . من هنا يمكن لنا تحديد مفهوم الصورة والتي لا تستجلي لنا إلا في حقل الأدب المقارن، وهي تظهر الآخر في "الأنا"، مثلما تمثلته الذهنيات القومية في صلاتها مع غيرها، ومحاولتها أن تكون لنفسها صورة عن "الآخر"، صورة تعكس نظرة أو موقفا، ومنه صورة الشخصية الفرنسية في الرواية الجزائرية.

كان للثورة التحريرية أثرها المحسوس في مجال الكتابة القصصية والروائية على وجه الخصوص، فقد فجرت قريحة الأدباء ودبّ ديبب الحماس فيهم فأبدعوا لنا صورا عن نضال شعبها، وحرّبا الضروس التي خيضت من أجل الكرامة والنصر. والمتتبع لتاريخ الرواية الجزائرية سيكتشف أنها اتخذت لنفسها مسارات خطها كتابها وجدوا فيها أنفسهم بين استحضر للتراث المحلي الوطني، فغدت عندهم حرب التحرير "النبع الأصل الذي اشْرأبت نحوه الأعناق واندھشت من طياته العقول، وانفوس، الشئ الذي أوكل إليها صفة المرجعية في بنية الحدث الروائي والفضاءات المتدخلة"⁶⁹. فصبغ هذا المسار بلمسة التمجيد للذكرى.

وبين كتابات سياسية واجتماعية اكتسبت شرعيتها الأدبية، وتتجاوزها الأنظمة لا سيما النظام الاشتراكي⁷⁰، وانحصرت هذه الكتابة في السبعينات.

⁶⁹ -ينظر: بنية الزمن في الخطاب الروائي، يويجيرة محمد البشير، دار الغرب للنشر، 2001 ج1، ص103.

⁷⁰ -من رواية الواقع الأدبي والإيديولوجي-رواية التسعينات، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي ف الجزائر، ص7.

ولعل الخطاب السياسي أخذ حظه من الرواية الجزائرية في العشرية السوداء، وهي الفترة الأخيرة من القرن العشرين، فكما قيل: "لا تكاد تقرأ رواية إلا وفيها من آثار الصدمة الدموية قليل أو كثير، ولعل في ميل الصحفيين على الكتابة الروائية وفيما كتبه أيضا ما يجسد هيمنة السياسي والاجتماعي لغة ومضمونا"⁷¹.

هي التجربة الروائية تستجلي صور الحياة بما يخلقه الروائي في عمله لتغدو قيمة مميزة فيه، ومن أهم ما يجرى أوتار الرواية الشخصية الروائية، فهي النقطة التي تلتقي فيها الأبعاد الداخلية والخارجية منها في نسيج يُعنى به الروائي عناية شديدة، حيث يختبئ وراءها معبرا عن إيديولوجيته ومرجعياته، مجبرا القارئ على البحث على تماثلها فاحصا معالمها.

ومن بين الشخصيات التي زاحمت الشخصية الروائية الجزائرية في النص الروائي الشخصية الفرنسية بعدها الطرف الآخر الذي تكتمل به عملية الخلق الفني في هذا النسيج.

من هذه الزاوية اهتدى الروائي الجزائري إلى تمثيل الشخصية الفرنسية في كتاباته على تنوع وظائفها وطبقاتها، وثقافتها، وقد نالت رواية"ما لا تذروه الرياح" لمحمد عرعار حظها الأوفر من الشخصية الفرنسية في رسم أحداثها.

إن دراسة صورة الشخصية الروائية الفرنسية في هذه الرواية يمكننا من استخلاص الرؤى والصور التي تموتعت في متخيل الروائي في حد ذاته، حيث شكلت نبضا تفاعلت فيه كل ما تم علنه الشخصية من أفكار وأسلوب عيش وغير ذلك، ولم تكتمل صورة هذه الشخصية في الرواية الجزائرية إلا ضمن سياقها الجمالي والأسلوبي مع شخصيات أخرى.

وتقدم الشخصية الروائية بأربع طرائق بحسب ما قدمها عالم الرواية، بحيث "تقدم نفسها، وتقدمها شخصية أخرى، ويقدمها راوي لا يشارك الأحداث، أو تقدم نفسها، وتقدمها الشخصية الأخرى، ويقدمها الراوي البعيد عن الأحداث"⁷².

ولهذه الصور من التقديم وجود في رواية ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار.

2.رواية ما لا تذروه الرياح لمحمد عرعار العالي:

استطاع الروائي محمد عرعار في هذه الرواية أن يعيد إلى الساحة الروائية بالجزائر حقبة زمنية من تاريخ الثورة الجزائرية من جهة، ومن الزوايا المظلمة للصراع الحضاري وتناقضاته من جهة ثانية.

اتجه الروائي في عمله إلى استخدام أساليب متنوعة في العرض والتصوير، جاعلا من عالم الذكريات التاريخية المنبع العميق لتعرية واقع تعايش المستعمر مع المستعمر، والدخيل المغتصب وصاحب الأرض المغتصبة، كما أنه كشف تلك العلاقات السيكو-اجتماعية، والتي فرضا الوضع، مبديا موقفه ووجهة نظره من الشخصية الفرنسية ظاهريا وباطنيا.

تدور أحداث الرواية بباريس بعد أن أجبر "البشير" على التجنيد، والالتحاق بأحد المعسكرات الفرنسية، هناك تغيرت أفكاره بمجرد ان وطئ أرضها ناسيا أهله وكل ما يربطه بهم وبلده.

حصل "البشير" على مغرباته من رؤسائه الضباط، وانساق وراء شهواته ساعيا إلى تحقيق ما يبعده عن ماضيه بالجزائر، عندها تعرّف على امرأة فرنسية اسمها"فرانسواز"-أرملة برنارأخذ حتفه على يد الثوار الجزائريين، ونال منها العطف والحنان والحب رغم

⁷¹ - من رواية الواقع الأدبي والإيديولوجي-رواية التسعينات، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي ف الجزائر ص71.

⁷² -نظرية الرواية، عبد المالك مرتاض، عالم المعرفة،ص83.

التناقضات الحاصلة بينهما، لتنتهي الرواية بعودته إلى دياره بالجزائر خائبا على ما ضيعه من مشاعر تجاه أهله وبلده، منبسطة بانتصارات وطنه.

تمثل الرواية حوارا ثقافيا بين حضارتين يكشف عن صراعات حضارية بينهما، كاشفة أثر تلك التناقضات الفكرية التي لا تكاد تبرح كل منهما في جذوره المتأصلة، حتى أن الرياح لم تتمكن من تذريرتها، فهي مقوم أساسي من مقومات الهوية للبلدين. أما فنيا فجاءت الرواية على النمط التقليدي، لكن لم تحل دون توفرها على بعض تقنيات الرواية الحديثة كتكسيهه لأفقية الزمن، وتقطيعه للأحداث في البناء الروائي، إذ جاءت الأحداث عبر أزمنة متداخلة ومتشابكة دون اختلال في البناء الروائي، في حين الأسلوب يُشهد عليه بساطة في المعنى، فصاحة في اللغة، لا وجود للعامية فيه.

أ/ صورة المرأة الفرنسية: كان حضور شخصية المرأة الفرنسية حضورا قويا في هذه الرواية، بحيث تجاذبته الأدوار، ولا يخفى على أحد ما تحمله المرأة من دلالات وإيحاءات في النص الأدبي بصفة عامة، لا تخرج عن نطاق الرقة والجمال والعطف، والحنان، ولم تبين المرأة الفرنسية عن ذلك هنا، "فمادم فرانسواز" المقيمة بالجزائر تعيد للبشير ذاكرته في أحلك ظروفه وهو بفرنسا، فيناجي نفسه قائلا: "...منذ كنت صغيرا وأنا أعشق بهاءهن، إني أتذكر تلك الأيام الحلوة التي كنت أذهب فيها إلى بيت مدام فرانسواز...أخذتني من يدي وأعدتني بجانبها على أريكة خضراء..."⁷³.

ونموذج "مادم فرانسواز" المرأة الفرنسية مثل في ذهنية الفرد الجزائري بكل ما يحمله من مبادئ إنسانية، إلى جانب النعومة والفتنة والجمال، لتغدو له فارقا بينها وبين نموذج المرأة الجزائرية.

جعل الروائي اسم "فرانسواز" الاسم اللامع والبطل في عمله ليعود ويظهر من جديد فيرتسم في شخصية روائية أخرى، امرأة في عز شبابها، هي في الثلاثينيات من عمرها، غير أن "فرانسواز الجديدة" شابة مقيمة بباريس تظهر بمحض المصادفة بطريق البشير، فيتقصد إقامة علاقة معها، وإذا كان مع فرانسواز "المقيمة الجزائر ربة البيت طفلا فهنا عشيقا هائما بجمالها الساحر، حيث يتتبع أثرها مقدما لنا وصفا لها على لسانه قائلا: "...يا للمرأة الشجاعة التي تحترق الشوارع بمفردها دون حارس أو حام بأنفاسها المديدة وجمالها الساحر الفاتن..إنها تمشي مرفوعة الرأس، متصلبة القامة، معتزة بنفسها، تتحدى الزمن، وتدعو إلى الإعجاب..هذه هي المرأة التي يمكن للمرء أن يفتخر بها ويعتز بقربها..."⁷⁴.

ويبدو أن البشير وجد ضالته في هذا النموذج النسوي الفرنسي وما يتوافق وأهواءه، والذي طالما أثر بمفاته فيه. ورغم الفروقات التي لاحظها البشير في النساء الفرنسيات من غياب الأخلاق، وجريهن وراء الهوى، إلا أن فرانسواز "تختلف عنهن في بادئ الأمر، حيث أبدت كرامة وعزة نفس عند ملاحظته إياها، وحاولت صرفه عنها قائلة: "أيها السيد المحترم هل تفضلوا فتختبرواي لماذا تلاحقوني منذ زمن طويل؟ ألا تستحون من فعلهم الخسيس هذا؟ فتتركوني لشأني وتذهبون لعملكم، لقد سئمت من ملاحظتكم المستمرة لي..."⁷⁵.ولو تمعنا لطريقة خطابها لاستشفنا رقا فيه ينم عن أسلوبها الراقي في الكلام.

⁷³ -رواية ما لا تذروه الرياح، محمد عرعار العالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع شارع زيروت يوسف، مجلة الابتسامة، ص 58.

⁷⁴ -الرواية، ص 99.

⁷⁵ -الرواية: ص 101.

هذا ولم تختلف " فرانسواز" الشابة عن مدام فرانسواز في المبدأ الإنساني تجاه البشير رغم العقبات التي قد تعترضها من جيرانها، تكشف لنا ذلك الرواية نحو: " فرفعته بكل ما تحمل من قوة إلى أن استقام على قدميه واحتضنته بذراعها الأيمن إلى نفسها وأخذت تسير به خطوات بطيئة ثقيلة نحو بيتها..."⁷⁶، كما تظهر فارق الإصرار والعزيمة على إنجاز العمل عن سابقتها، مما اضطرها إلى إنهائه قبل أن يؤنبها ضميرها، فترى ذلك جليا في الرواية نحو: " ثقل الحمل على السيدة الفرنسية لكنها صممت أن تصل به ولو لزمها ذلك قضاء ساعات من الشقاء والمصارعة فقد مال قلبها إلى الفتى الذي تحتضنه إلى نفسها"⁷⁷.

وبحكم نموذج شخصية المرأة الفرنسية الممثلة في " مدام فرانسواز"، أو " فرانسواز برنار" يظهر لنا أنها شخصية المرأة الناضجة التي أخذت منها تجارب الحياة الحظ الأوفر، فعلمتها ضروبها صنوف العيش وحسن التصرف والتدبير بعد التفكير، فهي قبل ذلك امرأة وفيه مخلص لزوجها المتوفى "برنار"، هذا الزوج الذي لقي مصيره على يد الثوار الجزائريين، حيث أقسمت بعده على ذلك قائلة: " وقد أقسمت بمجرد خبر وفاته على الإخلاص له والبقاء شريفة لذكراه الخالدة..."⁷⁸.

وتصرح في موضع آخر على تجربتها بالحياة قائلة: " ...أما الآن يا جاك فإني أكثر تجربة..."⁷⁹، على أن الحياة أكسبتها الثقة بالنفس وحسن التصرف.

مثلت شخصية"فرانسواز" صورة المرأة الفرنسية المثقفة التي تتباين مع نظيرتها بالجزائر في تلك الفترة، والتي خلقت محطة مقارنة ذهنية عقدها البشير، وقبل ذلك تحرى الإخوة الجزائريين في فرنسا نحو: " فعرفوا أنها امرأة محصلة على جانب كبير من العلم والثقافة...وعندما سمعت السيدة زوجته تأثرت كثيرا لهذا المصاب فبقيت قليلة العلاقات مع الناس تحبذ الوحدة وتنشد الصمت...فهي لاشك تود الانتقام لزوجها"⁸⁰.

من هذه الثقافة التي أخفت في طياتها دسياسة ونظرة عدائية للشعب الجزائري وقضيته بدت واضحة في ذهنية البشير الذي لم يجد بد من ذلك غير الهروب للخمر والسكر حتى يشمل فلا يعبأ بالماضي.

والحقيقة أن صورة شخصية" فرانسواز" أظهرت دهائها وذكاءها وأثبتت تفوقها، واستغلال ذلك في الحفاظ على البشير كونها تأكدت من عدوانيته لبلده، بعد أن كانت تصطحبه إلى زيارة الأحياء الفقيرة لإخوانه المهاجرين، كشف حقيقة اسمه المستعار " جاك" قائلة: " ...وأنا أعرف كذلك أنك لا تدعى جاك وإنما تدعى البشير، وأنتك لست فرنسيا، وإنما جزائريا..إنك أبله إذا كنت تعتقد هذا..بالإضافة إلى سيمانتك الفزيائية، وسلوكك الخاص..."⁸¹.

ولم يمنعها دهائها من أن تغير نظرتها العدائية وأنانيتها من سرورها بعودة البشير إلى رشده ووعيه في مشاعره تجاه وطنه وأهله، فقد أخذت دور المعلم الناصح، تورد ذلك قائلة: " نعم أنا أعرف وكيف لا أعرف وأ نفسي الذي نمت فيك حب الوطن وحب الأهل حينما قدمت لك الكتب ورجوت منك أن تطالعها وأنا أعرف أن تلك الكتب تبحث في تاريخ بلادك...وفي الحقيقة أنا

76 -الرواية، ص 104.

77 -الرواية، ص 104.

78 -الرواية، ص 131.

79 -الرواية، ص 132.

80 الرواية، ص 204.

81 الرواية، ص 205.

لست نادمة الآن على ما فعلت، بل أنا مسرورة... مسرورة بكونك عدت إلى صوابك، وفطنت إلى أن التنكر للأصل ومحاوله التزيين بصفات الناس الآخرين لا تفيد...⁸².

من هنا اهتدى الروائي إلى تقديم صورة المرأة الفرنسية بإيديولوجيتها الإيجابية التي حققت منها انجازا كفيلا بهذا الجزائري المنتكر لهويته تقديم حياته فداء لها، فقد أعادت له صوابه ورشده، مصححة له تفكيره والسعي في اثبات هويته ومقوماته ومبادئه، وما كان لها ذلك لو لم تكن تنعم بالمستوى الثقافي والوعي الفكري، وكأما تحمل الصورة رسالة هادفة في طياتها مفادها ضرورة التثقيف النسوي خاصة لأنها العنصر الفعال في المجتمع.

ب/ صورة الجندي الفرنسي: صاحبت شخصية الجندي الفرنسي أحداث الرواية، والتي لم تحد عن الصورة المألوفة، حيث ورد ذكره منذ الصفحات الأولى بأشكال مختلفة بحسب الأدوار التي أسندت إليه، فتارة منتهزا فرصة الاعتداء وهتك الأعراض نحو قدومه في جمع القوات العسكرية إلى بيت بلقاسم والد البشير لأخذ هذا الأخير عنوة كما أسلفنا الذكر في إشارة الروائي: "... التي ظهرت في الأفق البعيد على شكل كتل سوداء وقف هكذا ينتظر وهو لا يدري لماذا ينتظر، إن ابنه في خطر يحيط به المصائب من كل جهة"⁸³. بدت لنا صورة الجندي الفرنسي الوحشية والعنيفة، إلى جانب فساد أخلاقه وانتهاكه للحرمات، وإكثار الدسائس، فالأولى نحو: "فإن البشير أصبح يغادر المعسكر بصحبة رفاق فرنسيين، ويتجه نحو العاصمة ليغرق نفسه في الكحول والمحرمات..."⁸⁴، والثانية في نظرهم العدائية للجزائر وسخريتهم منها، هذه الصورة التي هزت كيان البشير فراح يلعنهم في دواخله غير مبين على ذلك، نحو: "إن الجزائر مازالت بلاد متأخرة.. لكن لو تتوقف الثورة فإن الفرنسيين سيعملون على محاربة التأخر الموجود، ويجعلون من الجزائر بلدا مثل فرنسا يشيدون فيها مطاعم فخمة..."⁸⁵.

إلا أن الرواية كشفت لنا عن صورة الجندي الفرنسي التي تحمل جانبا إيجابيا في طياتها استطاع أن يؤثر في نفسية من تستهويه الإغراءات من الشعب الجزائري، نحو ما حدث مع البشير عندما رضخ تحت مغرياتهم في تحسين حاله الثقافي ومستواه المعيشي، وذلك بالانضمام إليهم وخدمتهم، نحو: "إذن سنعيدك إلى المدرسة سندخلك إلى مدرسة جميلة جدا ستعجبك من غير شك.. لكن قبل أن تنخرط في هذه المدرسة يجب أن تتوفر فيك شروط..."⁸⁶. تمكن الجندي الفرنسي التأثير بأساليبه الاحتمالية التغلب على من له ضعف في الشخصية والانتماء إلى الجزائر وغياب الروح الوطنية فيه، فبدت له الحرية وبعث الثقة فيه من قبل القوات العسكرية الفرنسية شيئا نفيسا لا يقدر بثمن، نحو: "إنكم أحرار منذ هذه الساعة حتى الخامسة مساء تستطيعون أن تخرجوا إلى المدينة وتجتولوا فيها..."⁸⁷.

في حين شخصية الضابط الفرنسي فكانت من بين الشخصيات التي لازمت البشير في حركاته وسهراته، ولم تختلف عن سابقاتها من الشخصيات الأخرى في نواياها وأفكارها ناحية الجزائر وقضيتها، خاصة بعد تحقيق نصرها، فقد أحدث ذلك حيرة لهم جعلتهم

⁸² -الرواية، ص 207-208.

⁸³ -الرواية، ص 13.

⁸⁴ -الرواية، ص 78.

⁸⁵ -الرواية، ص 80.

⁸⁶ -الرواية، ص 33.

⁸⁷ -الرواية، ص 45.

يفكرون في انتهاج سياسة جديدة تعوضهم خسارتهم، ورد هذا على لسان أحدهم قائلا: "يجب علينا أن نتعلم من جديد نتعلم سياسة جديدة سياسة لا تؤدي بنا إلى ما وصلنا إليه الآن من خذلان وسقوط، وانحدار أن كانت فرنسا قد أظهرت قوتها..."⁸⁸. يمكن القول إن صورة الجندي الفرنسي بمختلف مراتبه، وتصريحه بأفكاره كشف لنا صورته الحقيقية التي ارتسمت في ذهنية الجزائري وهي النظرة العدائية بكل ما تحمل من أبعاد سلبية تحاول الإطاحة بالجزائر، صورة جملة في طياتها المكر والحقد.

وحري بنا أن نشير إلى شخصيات أخرى كان لها حضور اسمي لخص في عمله فقط، تمكننا منه استجلاء تلك الصورة التي أفصحت عنها نظرة الروائي، على غرار "برنار" زوج "فرانسواز"⁸⁹، هذه الشخصية التي أظهرت فضولا وحماسا في سعيها لتأليف كتاب حول تاريخ الجزائر جعله يضحي بحياته بفرنسا باحثا عن المجد والخلود والمال في سبيل الانتصار لبلده فرنسا، ولعل عمله لم يؤهله لذلك، غير أن الروائي قدم لنا صورة مصغرة مكنت البشير من تغيير نظرتة لبلده.

كما لا يمكننا أن ننسى الطفل "بيير"، الطفل اليتيم، والطفل البريء الذي لا يفقه من القضية الجزائرية غير أنه يعلم بوفاة أبيه، والآن يسعى لأن يكون البشير أباه، أما الصورة التي ارتسمت في ذهنية الآخر هو البراءة إلى جانب الوضاعة والجمال. وكخاتمة للبحث يمكن لنا أن نخرج بهذه النقاط:

- الروائي محمد عرعار العالي تمكن من تحميل روايته " ما لا تذروه الرياح بشخصيات فرنسية نموذجية نهضت بالأحداث، وحددت انتماءها، فكان نموذج المرأة الفرنسية بكل أبعادها ونظراتها صورة عاكسة لتلك الفروقات الموجودة بين البلدين حضاريا وفكريا، نموذج فتح الباب على مصراعيه حتى يكون نمودجا يحتذى به في مسيرة المرأة الجزائرية في جانبها الايجابي طبعا لا سيما الجانب الثقافي. وأما نموذج الجنى الفرنسي فلم يختلف عن حقيقته التي بني عليها من عدائية ووحشية رسم صورتها في ذهن الفرد الجزائري، غير أنه فتح المجال للحيطة من السياسة المستقبلية، والتي بيعت على الفتنة من جديد لتعويض الخسارة.

- إن الوظائف التي كلف الروائي الشخصيات مفسرة للدور الذي تقوم به الشخصية قصد تعرية وكشف الصراع الحضاري القائم. قائمة المصادر والمراجع:

1. بنية الزمن في الخطاب الروائي، يويجرة محمد البشير، دار الغرب للنشر، 2001 .
2. ما لا تذروه الرياح، محمد عرعار العالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع شارع زيروت يوسف، مجلة الابتسامة.
- 3.. نظرية الرواية، عبد المالك مرتاض، عالم المعرفة.
4. الواقع الأدبي والإيديولوجي-رواية التسعينات، أعمال الملتقى الخامس للنقد الأدبي ف الجزائر.

⁸⁸ -الرواية، ص 188.

⁸⁹ -الرواية، ص 129.

محاضرات مقياس الأدب المقارن / السدسائي السادس *أدب حديث ومعاصر * جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان-2021-2022
د. بن معمر سوعاد

محاضرات مقياس الأدب المقارن / السدسائي السادس *أدب حديث ومعاصر * جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان-2021-2022
د. بن معمر سوعاد